السنة السادسة عشرة   العدد ٧   تموز ١٩١٣

المشرق

عنصر الكربون

نظر لحضرة الاب اسكندر جوران اليسوعي

بيَّن لك وصفُنا للخلايا الحيَّة واعمالها العجيبة (راجع الاعداد السابقة ص ١٦١ و ٢٥٠) ما اودعهُ الله في جراثيم الحياة من القوى الكامنة. ولعلَّ ذاك الفعل يلوح بنوع اعجب في احد الاركان المعروف عند الكيمويين بعنصر الكربون

وما ادراك ما الكربون؟ جسم تراهُ منبثًّا في كل اطوار الطبيعة تراهُ بالعيان حيثما سرت ومهما لمحت. لا غنى لك عنهُ في كل امور المعاش. يدخل الكربون في تركيب لحمك وعظامك. ان اكلت امتزج الكربون بطعامك. وان لبست ثوبًا خالطهُ الكربون. تستخدمهُ السيدات حُليًّا والملوك تيجانهم. اذا خيَّم عليك الليل التجأت الى الكربون للاستنارة بضوئهِ وان ركبت البحر سارت بك السفن بقوَّة بخارهِ. حاوِل الصعود الى الجوّ فيعيرك جناحيهِ لترقى في المناطيد. انفذ في اعماق الارض تجد الكربون مخزونًا في طبقاتهِ لخدمتك. ان قرسك البرد يدفئك الكربون وان تهدَّدك العدوّ رددتَ غاراتهِ بالكربون وليس البارود والديناميت وبقية الاجسام المتفجرة سوى مركَّبات يتزج الكربون بعناصرها

دعنا نمعن النظر في الكربون لعلّنا ندرك شيئًا من خواصهِ الجوهريَّة. قلنا ان الكربون عنصر من عناصر الطبيعة والكيميُّون يريدون بذلك انهم لا يستطيعون ان يحلّلوهُ الى مركَّبات اخرى فهو من هذا القبيل على شبه الاوكسجين والهيدروجين والازوت. ولكن شتَّان ما بينهُ وبينها من حيث وجوه كيانه فانَّ بقيَّة الاركان لا

تكون في الطبيعة الّا على حالة واحدة فبعضٌ منها جامد صَلْب والبعض مائع سيّال او غازيّ وان اردتَ ان تغيّر حالتها هذه الطبيعيّة لتُسيل الجامد وتجمّد المائع احتجتَ الى عوامل قويّة كالنار والكهرباء على خلاف الكربون الذي تجدهُ في الطبيعة على احوال متباينة فهو تارةً جامد ذو صلابة تفوق على صلابة غيرهِ وتارةً ناعم ملس كأنّهُ الدقيق او أنعم لونهُ يتراوح بين السواد والصفرة والحمرة والكمدة وربّما كان شفّافاً كالزجاج لا لون لهُ واسماؤهُ تختلف على اختلاف هيئاتهِ وصورهِ

من منّا لا يعرف الفحم. والفحم الخالص هو نفس الكربون. والكيماويّون يدعون فحماً اجساماً متعدّدة نحسبها لاوّل وهلة اجراماً متباينة التركيب. مثال ذلك سواد (شُحّار) المداخن وسناج الاسرجة وفحم الخشب وضروب الفحم المكتنزة في قعر الارض منها نباتيّة ومنها معدنيّة (lignite, tourbe, houille, anthracite) فكلّها كربون مع بعض الاخلاط التي افسدتها. ومثلها البلومباجين التي يصطنعون منها الاقلام الرصاصيّة والسَّبَج اي الخرز الاسود ثم العنبر والكهرب الاصفر اللذان تُستحضَر منهما القلائد والسُّبُحات للتلقّي فهي ايضاً تراكيب الكربون. وان شئت كربوناً خالصاً من كل شائبة فدونك الالماس

فبالله كيف يبرز العنصر الواحد تحت هذه الصور المتعدّدة. كيف جمع الله في ركن واحد خواصّ مختلفة حتى تراهُ ذليلاً مبتذلاً لا قيمة لهُ في بعض هيئاتهِ وهو على عكس ذلك جليل القدر غالي الثمن نادر الوجود في هيئات اخرى. فالغنيّ والفقير كلاهما في حاجة اليهِ

اعلم انّ الطبيعة كلّها ملأى من عنصر الكربون سواء كان في الكائنات الجامدة او في المخلوقات الحيّة. وهذا العنصر في حركة متداومة فحيناً يتحلّل ويتقسّم وحيناً آخر يتركّب ويتجمّع. وليس هناك عوامل ميكانيكيّة قديرة تقوم بهذه الاعمال كما يفعل ارباب الكيميا في مختبراتهم بل عوامل طبيعيّة بسيطة تشتغل دون سأم ولا ملل فتؤلف تلك العناصر وعلى الخصوص عنصر الكربون فتحضهُ وتفردهُ ثم تركّبهُ وتنضدهُ. وتلك العوامل هي الخلايا الحيّة في النبات وليست كلّها على سواء بل الخلايا المجهّزة بحبوب الكلوروفيل وهي المادّة الملوّنة الاوراق بالخضرة

فانَّ تلك الخلايا الخضراء اذا عملت فيها اشعَّة الشمس لستحضرت كل يوم في كل نبات كميّاتٍ من الكربون لا يحصيها الَّا خالقها وذلك على وجه الارض باسرها

ولعلَّ القارئ يسأل وكيف نعرف انَّ في النبات كربوناً ؟ ذلك لمن اسهل الامور . خذ رزمةً من الحشيش او قطعة من الخشب فألقهما في النار لا تلبث ان تجد بعد احتراقهما فحماً اي كربوناً — ضع كسرةً من الخبز على جمرة نار يتبخَّر ما فيها من الماء ثمَّ يسودّ الخبز فيحترق فهذا الكربون بعينهِ لأنَّ خبزك السميذ كان الكربون احد مركَّباتهِ . كذلك اللحم اذا عرضتهُ على النار زمناً طويلاً اسودَّ وتفحَّم وهو ايضاً يحتوي كربوناً الَّا انَّ كربون اللحم على خلاف الخبز قد مرَّ بمعمل حيّ . فانَّ الحيوان رعى الكربون من النبات ثمَّ حوَّلهُ بفعل خلاياهُ الحيَّة الى لحمهِ . ومنهُ ترى انَّ أجرام النبات كما الحيوان تتكوَّن من خلايا النبات الخضراء . اي من الكربون لانَّ الكربون هو معظم ما فيها من العناصر وان كان يدخل فيها عناصر اخرى غيرهُ

والدليل على وفرة كمية الكربون ان تحرق خشباً في اتون تعزلهُ عن الهواء الكرويّ لئلَّا تتطاير موادُّهُ في الهواء . فبعد احتراقهِ وتحوُّلهِ الى فحم تجد انَّ جرمهُ لم يختلف عمَّا كان قبل احتراقهِ . وليست مناجم الفحم التي تُستخرَج في ايامنا من بطن الارض في بلاد عديدة (ولا يخلو منها لبنان) سوى مستودعات عظيمة من فضلات النبات الذي نما في اطوار الاجيال السالفة ثمَّ دفنتهُ في قعر الارض التقلُّبات الجيولوجيَّة فاختمر بفعل حرارة الارض حتى تفحَّم . وكذلك قُلْ عن مناجم النفط الذي ينبع في كوكبة وجهات بحر لوط وفي نواحي الموصل وفي بعض الاقطار الاوربيَّة . واشهر من النفط مناجم غاز البترول التي تُستخرج من بلاد عديدة وتُنقل الى اقاصي المعمور . ومن المحتمل انَّ منها منابع في شمالي سوريَّة كما يروي الرواة . فالنفط والبترول يتركَّبان غالباً من الكربون الارضيّ بفعل الاستقطار الطبيعيّ . وان تتبَّعتَ تغيير احوالهِ رقيتَ من النفط والبترول الى الكربون المتجمّد ومنهُ الى النبات الحيّ ثمَّ الى الخلايا الاصليَّة التي بفعلها كُوِّنت هذه الاجرام منذ الازمنة الخالية لتكون في عهدنا مستودعات وقودنا واصطلائنا واستصباحنا بل مؤونة قوانا وتحريك ادواتنا وآلات معاملنا . فسبحان الله الذي سبق فدبَّر كلَّ شيءٍ لخير البشر

لم يدع العلماء في عهدنا كائناً من الكائنات المادّية الّا شرّحوهُ وبحثوا في كلّ اقسامهِ حتى بلغوا منتهى دقائقهِ. حلّلوا الاهوية والابخرة سبروا اغوار البحار وشخّصوا ما فيها من مواليد الطبيعة. فكّكوا اصمّ الصخور والمعادن. استقصوا البحث عمّا تمجّهُ الارض من اعماقها كحُمَم البراكين والمياه المعدنيّة او النازّية. انتقدوا كلّ ما في عالمنا من جماد ونبات وحيوان وآليّات ومختمرات وعفنيّات لئلّا يفوتهم شيء من اسرارها. فكانت نتيجة ابحاثهم انّ كلّ تلك المواليد الغير المتناهية عدداً ونوعاً وفعلاً يكاد تركيبها يعود في الغالب الى اربعة عناصر وهي الازوت والكربون والاوكسيجين والهيدروجين. والسّبق بينها مضمون لعنصر الكربون الذي نحن في صددهِ فهو داخل في تركيب كلّ ما نجيا على الارض من نبات او حيوان

فان اكلت خبزاً او لحماً او ثمراً تزدرد كمّيات من الكربون لانك ان عرضت هذه المآكل على النار تتفحّم وتتكربن. وان اردت طبخ طعام توقد ناراً من فحم خشبي او معدني وللحال ينبعث دخان اسود. فهذا كربون. ولعلّك تعمد الى الغاز او البترول او الى البنزين ظنّاً منك انهُ ليس هناك فحم او كربون. كلّا يا سيّد. ظنّك والدليل عليهِ ان تجعل فوق لهيب الغاز صفيحة من زجاج او صحناً ابيض فتراهُ يسودّ من وقتهِ. فيكفي بهِ شاهداً على انّ الغازات والمائعات متركّبة من الكربون. وان اردفت قائلاً: ها اني أوقد شمعةً بيضاء. فليس هناك فحم والفحم اسود. قد اغتررت يا صاح فانّ الشمع سواء كان عسليّاً او شحميّاً او غير ذلك فالكربون هو معظم كيانهِ. ولعلّك تلتجئ في آخر الامر الى الكهرباء. الّا انّ موقد الكهرباء هو غالباً محرّك يمشي بقوّة الفحم او هما قطبان من الفحم يتكهربان سلباً وايجاباً

هلمّ بنا الآن الى البقاع لنتجوّل في الحقول او الحدائق. ترى امامك نباتاً وزهوراً واغصاناً وشجراً. ان اعملت فيها ناراً عاينت للحال فحمها وحيثما سرت وانّى تقلّبت وجدت الفحم محدقاً بك شئت ام أبيت. وان سألت من اين تكل هذه الكائنات كربونها ألعلّها امتصّتهُ من اعماق الارض ? كلّا. احفر اذا شئت وعمّق فلن تجد في الارض كربوناً. وان ألفيت شيئاً منهُ وجدتهُ في حالتهِ الطبيعيّة لم يظهر فيهِ ادنى أثر التحليل لانّ الفحم المدفون لا يعمل فيهِ الفساد حتى بعد كرور الاجيال الوافرة

فكيف اذن اجتمعت في هذا النبات في هذه الاشجار الباسقة وفي هذه الغابات الواسعة تلك القناطير المقنطرة من الكربون ؟ اين خزائنها التي استمدّت منها لحمها لتسمو وتبسق في الملاء وتمدّ افنانها الوارفة في الجوّ ؟ اليس هناك منجم كربون او نقول انهُ خُلق من العدم ؟ ومن المعلوم ان الله وحدهُ يبدع الموجودات من العدم

كلّا أيها العزيز ان هذه الكميات الوافرة من الكربون لم تصدر من لا شيء. اما اذا سألت ما هو اصلها فاجيبك ان هذا الكربون كان في الاصل منبثاً في كلّ الانحاء. فمنهُ في الارض ومنهُ على الاخصّ في الهواء الكروي لكنهُ ليس هناك متجمّداً صلباً كالفحم العاديّ مستدقاً ناعماً كما يُرى في الدخان المتطاير الى الجوّ وانّما هو على هيئة الموائع الغازيّة

فذاك الغاز اذا تسلّط عليه غاز آخر وهو الاوكسيجين امتزج بهِ وضمّهُ الى نفسهِ بحيث يصبح كلاهما جسماً جديداً مستقلًا ذا خواصّ جديدة نريد بهِ الحامض الكربونيك

وهذا الحامض لو بقي في الجوّ وزادت كمّيّاتهِ لأضحى سمّاً قاتلًا لمن يستنشقهُ ألّا انّ الله تلافى ذلك الخطر بان ينفذ فيهِ نور الشمس وبنفوذه تستطيع اوراق النبات والاشجار ان تحلّل دقائقهُ فتمتصّ ما فيه من الكربون لتتغذي بهِ. اما الاوكسيجين فيتطاير الى الجوّ ليستنشقهُ الانسان والحيوان ولا غنى لهما عنهُ. وعلى هذه الصورة تعمل خلايا النبات بكل سهولة ما لا يستطيع فعلهُ الكيماويّ الّا بعد الكدّ والجدّ وهي تخدم نفسها والحيوان معاً

ولعلّك تسأل ومن اين تصدر في الجوّ هذه الكميات العظيمة من الحامض الكربونيك التي تحلّلها اوراق النبات امذانها

ينبعث الحامض الكربونيك منك ايها القارئ ومني بل من كلّ انسان ومن كلّ حيوان حتى من اصغر الحشرات واسماك البحار . لانّ كلّ ما فيهِ نسمة حياة يولّد حامضاً كربونياً

وان استفتيتَ الكيمويين ليوثقوك على صدق الامر افادوك علماً بقولهم انّ الهواء الجوّي الذي تستنشقهُ يتركّب من مزيج غازين هما الازوت والاوكسيجين فاذا نفذ الاكسيجين في رئتك وجد هنا دقائق الكربون فيسطو عليها وان شئت قل

يحرقها فيمتزج بها ويتكوّن من امتزاجه الحامض الكربونيك لانّ الكربون الذي في جسم الحيوان لا يتلاشى بالاحتراق كما لا يتلاشى كربون الشجر الملقى في الأتون المتحوّل الى فحم اسود . لكن الحامض الكربونيك لا يبقى في صدر الحيوان بل يخرج بالشهيق عند تنفسه فيعود الى الهواء حيث يستأنف النبات تحليله كما مرّ

يا لله كم في العالم من عجائب اذا تأملها العاقل حار متذهلاً وجثا مبجلاً امام تلك القدرة الالهية التي وقّرت في ارضنا كل هذه الآيات . ليت شعري كيف امكن وجود رجال زنادقة بين البشر اعمى قلوبهم عن هذه الخوارق فانكروا الخالق ؟ أهم بشرٌ يعقلون او بُهْم عجم لا يفهمون ؟ ينسبون عجائب المخلوق الى الصدفة وهم يأنفون نسبة مسمار صغير او اناء خشبي الى الصدفة لئلا يصبحوا اضحوكة في اعين الناس . فكيف لا يعدّم العالم فاقدي الشعور فاقدي العقل اذا جحدوا وجود الخالق مع ما يصدر عن جودهم من العجائب

ولربّما تلقي عليّ سؤالاً آخر بعد ما سبق من تعريف الحامض الكربونيك ووصف تحليله فتقول : ومن اين لنا في جسمنا هذه كمية الكربون التي يأتلف بها الاوكسجين بالتنفس ؟

اعلم أيها العزيز ان الكربون ممتزج في دمك يصحبه ابداً . اما دمك فانه يجمع من كل اطراف جسدك وذلك ان الكربون عند نفوذه في الجسم تحمل فيه الاعصرة المضمّة ثم يدفعه دم الشرايين (sang artériel) الى كل جهات الجسم لتغتذي به انسجة لحومنا وعظامنا وما فضل من ذلك يعود به الى الرئة الدم المسمى بالعرقي (sang veineux) فهناك يلتقي باوكسجين الهواء فيتحوّل الى حامض كربونيّ وهو غذاء النبات كما قلنا

وان اردفت قائلاً : ومَن ادخل في جسمنا هذا الكربون . فالجواب انّ الكربون هو قسم من مأكولنا فهو في غذائنا اليومي في اللحم الذي نتناوله في الخضرة والبقول والحبوب التي نزدردها . والزيوت والدهون وضروب السمن الداخلة في طعامنا . اذ ليس بين كلّ تلك المأكولات قوت واحد خالياً من الكربون البسيط كما في المآكل النباتية او المركّب كما في لحوم الحيوانات . ومن ثمَّ ترى الآن كيف الحيوانات

كلّها بلا استثناء تمجّ في الهواء ذاك الحامض الكربونيّ الذي يتّخذه النبات مادّة عمله فيصلحهُ ويردّهُ لنا في الطعام

وليس الحيوان وحدهُ مصدر الحامض الكربونيّ . بل لهُ مصادر اخرى متعدّدة هي الحرائق التي يتهافت اليها النبات لاستحضار الكربون. اخصّها الداخن التي تُرى على كلّ وجه الارض طبيعيّةً كانت كفوهات البراكين او صناعيّة كداخن المعامل والمناجم والسكك الحديديّة والسفن البخاريّة حيثما تُوقَد نار مهما كان وَقود سعيرها كالخشب والفحم الحجريّ والموائع والغازات فانّ كلّها ينبعث منها في كلّ يوم بل في كلّ دقيقة ما يوازي ملايين من الامتار المكعّبة من هذا الحامض الكربوني الذي تحلّلهُ نباتات الارض فتنمو باغتذائه خدمتنا وتجدّد مؤونة كربوننا المفقود ثمّ تمنّنا بالاوكسيجين المنطّف لتستنشقهُ وبذلك تتمّ هذه الدائرة العجيبة التي يطيف بها الكربون من الهواء الى النبات ومن النبات الى الحيوان ومن الحيوان الى الحالة الغازيّة في الهواء.

وفي الطبيعة ما عدا هذه المصادر لتوليد الحامض الكربونيك مولّدات اخرى نزيد بها ما يلي في الطبيعة من الاجسام الآليّة فيفسد كالنبات واوراق الاشجار وكاجسام الحيوانات الفاسدة والعفونات وطحالب المستنقعات وبقايا الاثاث البالية من اخشاب وجلود واسمال الثياب وضروب القمامات والسماد والمختمرات فانّ هذه كلّها مناجم واسعة للحامض الكربونيّ لأنّ الاوكسيجين يعمل فيها كما سبق ويندمج بكربونها

وقد حسب بعض الكيمويين كمّية الحامض الكربونيّ التي يتحصّلها النبات في السنة من البشر وحدهم . فكانت نتيجة حسابه انّ رجلاً واحداً يمجّ من فمهِ في الساعة من ٨ غرامات الى ١٠ غرامات من الحامض الكربونيّ اي من الكربون. فيكون مجموع افرازه منهُ في ستين سنة بين ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ كيلوغرام فإن أحصيت البشر كلهم مليارًا فقط بلغ مجموع حامضهم الكربونيّ في السنة ثمانين مليارًا من الكيلوغرامات وذلك ما يوازي جبلًا عظيماً من الكربون

ولا تظننّ انّنا لدى ذكرنا احتراق الكربون بتنفّس الانسان نريد فناءهُ. كلّا فانّ في الطبيعة لا يُفقد شيء البتّة . فالاحتراق ليس بالتلف ولا الفناء وانّما هو فقط تغيير

الجسم من حالة الى أخرى لانَّ دقائق الاجسام باقية كلها ابدًا وان اختلف تركيب هذه الدقائق. فكذلك دقائق الكربون لا تتلف ولا تفنى لكنَّها فقط تنتقل من حالة الى اخرى مختلفة

يخال لنا انك قنعت بما قلنا عن توفُّر الكربون في الطبيعة. ولكن دَعنا نستقري معك بعض فوائدهِ في خدمتك اليوميَّة

ارى خاتمًا في اصبعك وكانهُ مفصَّص بحجرة كرية تشعُّ في عين الناظر. هذه على ما يلوح لي ماسةٌ منزلة في خاتم ذهب فزادت حسنًا على حسن. ولكن أتعرف ما هذه الماسة؟ هي اخت الفحمة

— ويلاه اتتهكَّم بي وتضحك منّي. كيف تشبها بالفحمة وكلتاهما على طرفي نقيض

— كلّا ايها الحبيب ليس هنا مكان للتهكم لانَّ الماسة كالفحم من جوهر واحد هو الكربون الّا انَّ هذا الكربون هو صافٍ في الماسة كدرٌ في الفحمة ولو وجد الكيماويون ادواتٍ وعوامل غاية في القوَّة لأحالوا الفحمة الى ماسة. وقد تمكَّن بعضهم من صنع قطع صغيرة من الماس الصناعيّ (١. ومن ثمَّ ترى فضل الكربون اذ تُتَّخذ بعض انواعهِ لزينة الآنية المقدَّسة ولترصيع تيجان الملوك وحلي السيّدات. وان حصل احد المثرين على ماسة في حجم بيضة الدجاجة عدَّ حالهُ اغنى من قارون (٢

هوذا قلم رصاصيّ في يدك بهِ تسطّر كلامك وتُدوّن افكارك على القرطاس أتعلم انهُ هو ايضًا من الكربون وكالماس المذكور آنفًا. الّا انَّ الماس كربون متبلور ولو انفذت فيهِ مجرى كهربائيًّا لاضحى دقائق ناعمة كالبلومباجين الذي تُصطنع منهُ الاقلام الرصاصيَّة

ثم تلقي قلمك فتتصفَّح كتابًا منشورًا بالطبع فتلتذّ بمعانيهِ البليغة وتقتبس من فوائده. غير انَّ هذه السطور المطبوعة التي تفيدك علمًا من افكار كاتبها لولا الكربون لَما امكنك استطلاع طلمها فانَّ حبر الطباعة الذي ابرز هذه الافكار هو

---

١) راجع مقالات في ذلك وردت في المشرق لحضرة الاب دي فراجيل (٦: ١٠٧٢ و٧: ٤٧ و٨: ٨٢٠) ٢) راجع مقالتين للاديب اسكندر افندي طحيني في مناجم الماس في ترانسفال واكبر ماسة وجدت هناك (المشرق ٦: ٨٦٥ و٨: ٢٨٥)

مركّب من الكربون المعروف بالساج المجبول بقليل من الزيت والزيت ايضاً يتألف من الكربون

ها قد اقبل الشتاء وتنفخت الرياح وقرس البرد فما الوسيلة للاصطلاء ؟ هوذا الكربون قد اتاك ليدفئ جسمك سواء اوقدت نارك بالحطب او بالفحم الحجري او بالكوك فكل ذلك كربون مع بعض اختلاف في صفاته وتركيبه

ها الشمس قد توارت ومدّ الليل رواقهُ فمن لنا بنور يجلي ابصارنا ويقشع عنا الظلمات . ادعُ الكربون فيلبّي دعوتك فتوقدهُ لما زيتاً واما غازاً سيّالاً واما غازاً هوائياً مختلطاً في الغالب بغاز الهيدروجين. وان فضّلت الاسيتيلين لسطوع نورها فالفضل ايضاً فيها للكربون المزوج بالكلس

يمرّ بنا الآن الى محطة سكّة حديديّة ترَ هناك اسلاكاً ممدودة. ترَ قطارات سائرة. ترَ ادوات محرّكة بقوّة البخار فمن اين لهذا الحديد صلابتهُ ؟ فذاك من فضل الكربون الذي يُعرّض عليه الحديد فيصلب ويستحيل الى فولاذ ذي خواصّ جديدة في وجدانه

ومثلهُ الحديد المتّخذ لصنع الادوات كالثريّات والشاعد والساعات والتماثيل فانّهُ لا يصلح لهذه الغايات الّا بان يُشرَب في تذويبه شيئاً من الكربون فيلين ويسهل سبكهُ ويدخل في القوالب المعدّة لهُ

وللكربون فضلٌ آخر يُذكر لهُ فيُشكر نريد بهِ التطهير واصلاح الفساد. فانّ الاطباء يصفون الكربون منعاً دقيقاً لمن فسدت معدتهُ فالكربون ينظف المعدة وينفي ابخرتها العفنة. وكذلك التهاب الرئة فانّهُ يُداوى بالقطران الذي هو من موانع الكربون. اذا تغيّر اللحم بفعل الحرارة فاخذ في الفساد ترى الطبّاخ يغليهِ ثم يجعل في مائهِ الغليّ جمرات من الفحم وبذلك يزول الفساد

اذا عمد البستاني الى نصب وتدٍ في الارض او اراد عمّال البريد اقامة أنصاب تلغرافيّة تراهم يحرقون بالنار رؤوس هذه الانصاب او يطلونها بالزفت قبل ان يركزوها في الارض وذلك لعلمهم بانّ الكربون يصونها من الفساد والعفونة

وكم تُصفّى المياه من ادرانها بالكربون. فهَب انّك وُجدتَ في قرية ليس ماؤها شروباً او يستقي اهلها من مستنقعات وخيمة او عيون ذات ماء أجاج . فما العمل ؟

خذ برميلاً وانقب اسفلهُ ثم اجعل في باطنهِ طبقات متناوبة من الرمل النظيف والفحم الخشبي الناعم ثم صبّ فوقهُ ذلك الماء الوبيل فينفذ في الفحم والرمل ويصفو ثم يسيل من الثقب الاسفل سلساً زلالاً خالياً من كل طعم سيّئ

وكذلك تُطيَّب الخمور بالحامض الكربونيّ . فانّ النبيذ المنسوب الى شمبانيا لم يحصل على خواصهِ الممتازة الّا بما يمزج فيهِ من الحامض المذكور فاذا شربتهُ شعرت بحرافة لطيفة يستطيبها الشارب وتجعل طعامهُ هنيئاً مريئاً سهل الهضم

ولو اردنا تعداد كلّ الاجسام التي يدخل فيها الكربون بكميّات وافرة مركّباً تارةً مع الاوكسيجين والهيدروجين وتارةً مع الاوكسيجين والازوت لشمل كلامُنا جميع المأكولات والمشروبات في ضروبها المختلفة كالكحولات والمأكولات الدسمة والموادّ السكريّة من اثمار وبقول والحوامض الآليّة من خلّ وعصير الليمون الحامض والموادّ الآحيّة والزبديّة من زلال بيض وضروب الالبان والجبن

فكل صنفٍ من هذه الاصناف ينال من الكربون حصّتهُ الصالحة ولو تحرّينا وصف كلّ صنف وحدهُ لما انتهى بنا الكلام . ومن اراد الزيادة فلينظر في كتب الكيمويين الذين اتّسعوا في ذلك ولم يدعوا شيئاً الّا استقروا كلّ اقسامهِ ومنافعهِ

على انّ الكيمويين ربّما سهوا في تآليفهم عن امر واحد وجب عليهم ذكرهُ نريد بهِ شكر العامل الاسمى والربّ القدير الاعلى الذي يضبط تحت حكمهِ تلك النواميس التي تنقاد اليها الطبيعة باسرها . وغاية ما وقف عليهِ العلماء حتى يومنا انهم ادركوا تلك النواميس وعرفوا طرائق تركيبها وتحليلها وتقلّبات احوالها لكنّهم مهما استفدوا من الوسع وافرغوا من كنانة الجهد لم يستطيعوا ان يجيزوا الكائنات الجامدة بجرثومة الحياة . فبقي الجماد في ايديهم جماداً واقرّوا بقصورهم عن ترقيهِ الى طبقة الاحياء . فانّ ذلك باقٍ وسيبقى الى الابد في حكم الخالق الذي لهُ وحدهُ ان ينعش الاجسام ويوليها هبة الحياة كما يفعل في الكربون الذي رأيناهُ جماداً في الهواء والتربة ثم لاح لنا في النبات حيّاً نامياً وفي الحيوان مزداناً بالحسّ والشعور . فقف ايها الانسان عند حدودك وخرّ جاثياً امام عزّة خالقك ضابط مقاليد الحياة والموت

اصل النساطرة الحاليين

واحوالهم الدينية والمدنية

لحضرة القس بطرس نصري الكلداني

لا يخفى ان النساطرة هم التابعون بدعة نسطور الزاعم انّ في السيد المسيح اقنومين الهي وانسانيّ . وكانوا يوماً قد انتشروا في كل الشرق من بلاد اثور والعراق والعرب والهند والصين جنوباً الى بلاد ارمينية والقفقاز شمالاً . ومن بلاد تركستان والعجم شرقاً الى بلاد سوريّة وفلسطين وقبرس ومصر غرباً . وبلغت طائفتهم اوج العزّ والترقّي في اواسط القرن الثالث عشر على عهد بابالاها الثالث اليغودي كما يتّضح من عدد المطارين والاساقفة الذين كانوا يحضرون من الاماكن القريبة فقط لانتخاب البطاركة على ما روى ماري بن سليمان وصليبا المؤرّخان . ثم اخذت تنحطّ رويداً رويداً حتى فقدت ذروة عظمتها بسبب الطمع في الرئاسة من جهة وسبب الاضطهادات التي قلبت الشرق على يد المغول والتركمان من جهة اخرى. فبلغت في القرن السابع عشر كمال الخمول والاضمحلال حتى لم يبقَ من تلك المفاخر التي كانت تعدّها وتتباهى بها سوى اثر زهيد . ويظهر ذلك خاصة بشهادة المؤلف النسطوري المجهول الاسم الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر الذي لمّا رأى طائفتهُ النسطورية قد اوشكت الانقراض على زمانهِ اراد ان يخلّف لها اثرًا ما . فوصف في مؤلّفهِ كثيرًا من كراسيها المطرانيّة والاسقفيّة بوجيز من الكلام وعدّد في كلّ منها ءانلاتها واساقفتها وكنائسها واديرتها لكي يعرف الخلف ما كان عليه السلف قبلاً من العز والانتشار السابق وقد طُبع هذا الاثر في المطبعة الكاثوليكيّة ببيروت سنة ١٩٠٦ بساعي حضرة الخوري بطرس عزيز الذي سُقّف على كرسي سلمست .

وكان بطاركة النساطرة قد هجروا لسبب الاضطهادات حاضرة بغداد حيث كانوا اقرّوا كرسيهم بعد خراب المدائن وسكنوا احياناً في مراغا . ثم تنقلوا من مكان الى مكان الى ان بلغوا نواحي الموصل . فكانوا يسكنون تارةً في دير مار اوجين بقرب الجزيرة العُمَريّة . وطورًا في دير مار هرمزد بقرب القوش احدى قرى الموصل . واحياناً في الموصل عينها . ولمّا انحصرت الرئاسة بشريعة الخلافة الابويّة التي سنّها

شمعون الباصيدي البطريرك (١٤٨٠-١٥٠٢) ومؤدّاها ان لا يُقام بطريرك الا من عائلته السلالة الابويّة سواء كان اهلاً للرئاسة العُظمى ام لا فهاجت شعوب هذه البلاد النساطرة واختاروا يوحنا سولاقا احد رهبان دير مار هرمزد وانفذوه الى رومية. فرُسم (سنة ١٥٥٣) بطريركاً في عهد يوليوس الثالث البابا. ولما عاد سولاقا دخلت الكثلكة الى هذه البلاد وثبتت فيها لكن عدوّ الخير لم يدع سولاقا يشتغل في كرم الرب زماناً طويلاً. فان شمعون بن ماما بطريرك النساطرة اثّر عليه اضطهاداً وسعى باعتقاله وقتله. فات شهيد الايمان سنة ١٥٥٥. وكذلك خلفاؤه عبد يشوع الرابع (١٥٥٥-١٥٦٧) ويابالاها (١٥٦٧-١٥٨٠) وشمعون دنخا (١٥٨٠-١٦٠٠) لم يتمكّنوا من السكنى في آمد والوصل القريبتين من البطريرك النسطوري المستحل فيها. بل قصدوا مدينة سعرت وقطنوا فيها خوفاً من بطش اعدائهم. وبالنسبة الى هذا شمعون دنخا عُرف بطاركة النساطرة الحاليّون المعروفون باسم الشمعونيّين. فانهم بعد ان تنقّلوا من سعرت الى اورمي وخسراوا وجولمرك اقاموا اخيراً كرسيّهم في قودشانس القريبة من جولمرك الى الآن

وبقي هؤلاء البطاركة الشمعونيّون زماناً طويلاً ثابتين على المعتقد الكاثوليكي اخذاً عن تعليم سولاقا الذي تسلسلوا منه. لكنّه قد انقطع بعدئذٍ من بينهم لاسباب شتى. اخصّها: انقطاع المواصلات بينهم وبين الكرسي الرسولي. واستعمال كتبهم ولاسيا الفرضيّة المشحونة بالاضاليل النسطوريّة بدون اصلاح. ومكناهم في الجبال العالية التي لا يصل اليها المرسلون. ولكنهم كانوا يجدّدون عهد الاتحاد مع السدّة الرسولية ويرسلون الى الاحبار الرومانيين صورة ايمانهم الكاثوليكي في فرص وازمان مختلفة

وهاك سلسلة هؤلاء البطاركة الشمعونيّين الذين اخذوا تسميتهم من شمعون دنخا الذي نسبّيه لذلك الاوّل. شمعون دنخا جلس من السنة ١٥٨٠ الى ١٦٠٠ وشمعون الثاني (١٦٠٠-١٦٣٩) والثالث (١٦٣٩-١٦٥٣) والرابع (١٦٥٣-١٦٦٢) وكانوا كاثوليكيّين اقتفاء بآثار سولاقا كما ستري. ثم نزع اكثرهم الى النسطرة منذ ارتقاء شمعون الخامس المعروف بدنخا ايضاً وهذا جلس من السنة ١٦٦٢ الى ١٧٠٠. فخلفه شمعون السادس المسمّى سليمان (١٧٠٠-١٧٤٠) والسابع

ميخائيل موختس (١٧٤٠ — ١٧٨٠) والثامن هو يونان (١٧٨٠ — ١٨٢٠) والتاسع المسمّى ابرهيم (١٨٢٠—١٨٦١) العاشر وهو روبيل (١٨٦١—١٩٠٣) والحادي عشر المسمّى بنيامين وهو الحالي الذي جلس سنة ١٩٠٣ ولا يخفى ان البطريركية البابليّة الكائنة في نواحي الموصل قد تنظّفت من النسطرة منذ بداية القرن التاسع عشر ولم يبق منها اثر ما سوى في جبال كردستان واثور والعجم

وكان شمعون الاوّل مطران جلو وسعرت وسلمس اهتدى الى الكثلكة على يد ايليا اسمر الشهير مطران آمد وآختير بطريركاً على الكلدان سنة ١٥٨٠ وانفذ الى رومية صورة ايمانهِ الكاثوليكي على يد ايليا المشار اليهِ طالباً التأييد ودرع الباليون . فعاد اليهِ حاملاً سنة ١٥٨٢ البراءات الرسوليّة والدرع المقدّس والتنبيهات اللازمة لما يجب اجراؤهُ في دائرة البطريركيّة

وجلس شمعون الثاني سنة ١٦٠٠ ولبث حافظاً وديعة الايمان الكاثوليكي كما تسلمها من سلفائهِ وساعدهُ في ذلك الاب توما النرڤاري رئيس المرسلين الفرنسيّين في حلب . وعلى يده أُنفذت صورة ايمان شمعون التي كتبها في ٢٨ تموز سنة ١٦١٩ في قودشانس حيث جلس البطاركة الشمعونيّون الى الآن . وعلى عهده نشأت بطريركية الكلدان التي أسيا سولاقا وازهرت بسعي خلفائهِ عبد يشوع ويابالاها وشمعون دنحا في الضعف والخمول بينما كان شان البطريركية الثانية البابليّة يستفحل ويرتفع على عهد ايليا السابع الذي ارسل صورة ايمانهِ الكاثوليكي الى بولس الخامس البابا سنة ١٦١٦

وقام شمعون الثالث سنة ١٦٣٩ . وهذا كتب صورة ايمانهِ في ٢٩ حزيران سنة ١٦٥٣ الى انوشنسيوس العاشر الحبر الاعظم في كنيسة مار جيورجيس التي في خسراوا حيث كان قاطناً وهذه بعض البلاد التابعة لبطريركيته: جولمرك . وبرواد . وكاور . وجيلو . وباز . وداسن . وتخوما . وتيّاري . وسلمست . ووان . واورمي . واسناخ . ومركا . وآمد . يقولون ان عدد سكانها ينيف على ٤٠,٠٠٠ عائلة

ومن الآثار التي تفيدنا عن احوال شمعون الرابع انهُ بعد اتحادهِ بالكرسي الرسولي نُفي من كرسيهِ بوشاية اعدائهِ فالتجأ الى اسكندر السابع الحبر الاعظم فعيّن البابا سنة ١٦٦١ لمساعدة نصارى بلاد العجم بلاجيدُس دي خانين

معاوناً لمطران بابل اللاتيني وناباً على مطرانيّة اصفهان التي كانت مقترنة ببابل وكتب رسالةً الى عبّاس الثاني ملك العجم في تلك السنة عينها يسترحمهُ في ان يلطف بمار شمعون المشار اليهِ ويعيدهُ الى كرسيّهِ. وعاون بلاجيدس المشار اليهِ مار شمعون في هذا الشأن. وعلّمهُ صورة الايمان الذي يجب ان يعترف بهِ

ولم يثبت هؤلاء البطاركة الشمعونيّون في المعتقد الكاثوليكي الذي اتى بهِ سولاقا زعيم بطريركيّتهم بل نزعوا بتمادي الزمان الى النسطرة من جديد اذ لم يحصلوا على ما كانوا يؤمّلونهُ من مساعدة الكرسي الرسولي بسبب ظروف المكان والزمان خاصةً. وتعلّموا من بطاركة الموصل البابليين تلك العادة المقوتة بان ينصبوا البطريرك بحقّ الخلافة من عشيرتهم الشمعونيّة. وجروا على مثال العائلة البطريركية الابويّة التي كانت سائدة ومؤيدة في الموصل ونواحيها ومن قرابتها العمومية. على ان هذه العادة قد انقرضت من البطريركية البابلية بموت مار يوحنا ابن هرمز آخر بطريرك من هذه العائلة سنة ١٨٣٨. لكنها لبثت مستمرةً الى الآن في العائلة الشمعونيّة ولا نعرف بعد ذلك شيئاً عن هؤلاء البطاركة الشمعونيين فان اخبارهم غابت عنّا زماناً طويلاً

ولكن بيدنا رسالة مؤرخة في ٢٠ نيسان سنة ١٧٨٠ امضاها شمعون السابع وهو ميخائيل موخش الى بيوس السادس الحبر الاعظم فيها يطلب ان يُعقد عهد في الاتحاد مع السدّة الرسوليّة. ملخّصها هو انهُ يعترف برئاسة الحبر الاعظم ويرفض الاضاليل النسطورية ويقبل ايمان الكنيسة الرومانيّة ويطلب ان تُنقل الكتب الطقسيّة من الاضاليل وان تُطبع وتُرسل الى الشرق لفائدة بني طائفتهِ. وقد ظفرنا برسالة مؤرخة في ١٢ ك ١ سنة ١٧٧٢ من لدن اقليميس الرابع عشر البابا الى هذا شمعون البطريرك يقبلهُ فيها بانعطاف ابوي. لانهُ سعى باعادة بني بطريركيتهِ الى حضن الكنيسة ويحضّهُ على الثبات في هذا العمل المبرور ويعدهُ بكل خير. وبهذا التأريخ عينهِ من تلك السنة كان اقليميس المشار اليهِ قد انفذ الى يشوعياب ناظر الكرسي البابلي رسالة يظهر فيها لهُ فرحهُ لانهُ باسم عمهِ ايليا الحادي عشر البطريرك عقد الاتحاد مع الكرسي الرسولي وقبل الايمان الكاثوليكي. ثم حرّضهُ على التمسّك بهِ. ومن ثمّ لنا ان نؤكد على التحقيق كما يظهر من رسالة ايليا الموما اليهِ سنة ١٧٧٦

الى مار شمعون ان هذا الاتحاد قد تمّ بالتواطؤ والاتفاق بينهما . وان مار شمعون كان يومئذٍ خاضعاً لالياً ومعروفاً عنده بمثابة جاثليق راجع الى سلطانه الاعلى البابليّ

وليس لنا بعد هذا التاريخ اخبار هامّة عن هؤلاء البطاركة الشمعونيين الذين نزعوا من جديدٍ الى النسطرة الموروثة من آبائهم لانقطاع المواصلات بينهم وبين الكرسيّ الرسوليّ ولاجل خلوّهم من ارشاد ومساعدة الرسالات الكاثوليكيّة .

ولكن على عهد شمعون التاسع المسمّى ابراهيم (١٨٢٠—١٨٦١) ألمّت بالنساطرة داهيةٌ عظمى . وهي غارة بدرخان بك الذي كان من نسل الأكراد الحاكمين على اقليم البهتان . وكان اميراً على الجزيرة . وكان يبغض النساطرة وينقم عليهم لاستقلالهم الى هذا العهد في جبالهم العاصية فسوّلت له نفسهُ الى الهجوم عليهم واستولى على بلادهم . ونهب وسبى واعمل فيهم السيف . واجرى مذبحة هائلة بينهم . ففرّ بطريركهم مار شمعون الى السيد خرستيان بن عيسى الرسّام الموصليّ الكلداني الذي كان قد تعيّن قنصلاً من لدن الدولة الانكليزيّة في الموصل . وما زاد هذه الفاجعة هولاً هو ان النساطرة طلبوا الاستقلال وجاهروا بالعصيان . فاتّقد بدرخان بك غضباً وزحف بعساكرهِ الى تلك الجبال الشامخة وأجرى ملحمةً بين العشيرة التياريّة . فقتل وذبح واحرق القرى وسلب مواشيها واتلف غلّاتها . وأتت جيوشهُ الكرديّة بمنكراتٍ يكلّ اللسان عن وصفها . حتى ان بعض العذارى ألقين انفسهن في الانهر طلباً للنجاة من الفضيحة . ولبثت ابواب هذا الجور والشراسة مفتوحة وعاملةً بين النساطرة الى سنة ١٨٤٧ . فلما بلغ مسامع الدولة العليّة هذا الخبر ارسلت عساكرها تحت قيادة عثمان باشا بموجب التماس الدول ردعاً لذلك الطاغية . فترك بدرخان بك حصونهُ وانزوى في احدى قلاع تلك الجبال الشامخة . ولما اشتدّ عليه الامر سلّم نفسهُ لعثمان باشا فأُرسل الى النفي . وبعد هذا الظفر عوّلت الدولة العليّة على ان تستولي على بلاد كردستان ومراكز النساطرة واقامت فيها الولايات والاقضية وضربت عليها الرسوم الاميريّة . وفي هذه المذبحة قد قُتل كثيرٌ من النساطرة اعترافاً بالايمان . ولا ريب في ان اكثرهم يُعدُّون من الشهداء . لان اكثرهم قد عُرض عليهم الكفر بالمسيح كواسطة وحيدة للحياة . فآثروا الموت على الحياة . ولا بأس كونهم جهلوا حقيقة الكنيسة الكاثوليكيّة . لانهم كانوا في ضميرٍ سليم يُعدُّون من نفس

وديگالا (ܕܝܓܠܐ) وگوگتاپا (ܓܘܓܬܦܐ) وعادا. وسپورگان (ܣܦܘܪܓܢ) وگويلان (ܓܘܝܠܢ) وموشاباد (ܡܘܫܐܒܕ) وقراجلوا (ܩܪܐܓܠܘ) وعبجلو (ܥܒܓܠܘ) وكهريجش (ܟܘܗܪܝܓܫ) وانهر (ܐܢܗܪ) وارديشي (ܐܪܕܝܫܝ) وزاتكيا (ܘܙܐܬܟܝܐ) وتحتوي هذه القرى على ٨٠٠ بيت تقريباً من النساطرة ما خلا القرى الاخرى الصغرى. وقبل هذه الازمان كان جميع اهل اورمي نساطرة. وكان يدبرهم خمسة اساقفة وهم: جبرائيل الارديشي وكان هذا الكرسي متقدماً على غيره في القدم والشرف وآخر في تزلو (ܬܙܠܘ) ويسمى اشيا. وآخر في كوكتپا ويسمى ايليا. والرابع في گويلان ويسمى يونان. والخامس في اروماغيج ويسمى ايليا. وهذه الابرشيات كانت تعطي في كل مدة ثلاث سنين المشور البيعية لمار شمعون البطريرك

ولما كانت سنة (١٨٣٤ م) دخل البروتستانت الاميركيّون في اورمي وفتحوا مدارس كثيرة في قراها ومدرسة كلية فيها وشرعوا يبشرون بدعهم. وتبعهم كثيرون فانحاز يوحنا اسقف گويلان الى مذهبهم وتبعه اشيا اسقف تزلوا ايضاً مع ناطور كرسيه وايليا اسقف كوكتپا. اما ايليا اسقف اروماغيج فمات. ولم يبقَ في اورمي سوى اسقف واحد وهو جبرائيل مطران ارديشي

وسنة ١٨٦٥ م اتى الروسيّون الى اورمي فانحاز الى مذهبهم يونان المشار اليه هو وايليا ناطور كرسي اروماغيج مع كثيرين. وهؤلاء بعثوا بايليا الى بطرسبرج ورُسم ثمَّ اسقفاً على يد الروسيين ثم عاد الى اورمي. وفي سنة ١٨٩٠ ذهب جبرائيل اسقف ارديشي صحبة اثني عشر اكليريكياً لزيارة خانيشوع اسحق مطران شمسدين فتناهم جمياً الشيخ نيري. وكان هذا الاسقف الثاني عشر بين الذين قاموا في الاسقفية من هذه العائلة الواحد بعد الاخر. وبعد موت جبرائيل هذا تقوّى الروسيّون واخضعوا لطاعتهم كل كنائس النساطرة حتى مُحي اسمهم تقريباً من بلاد اورمي. ثم عاد منهم نفرٌ ايضاً الى النسطرة ينيف عددهم على ٨٠٠ بيت فاقام مار شمعون لهم كرسياً جديداً اسقفياً في قرية اسپورغان. وسُمي هذا الكرسي باسم يونان لان اوّل اسقف خدم هذا الكرسي دُعي يونان. وبعد موته سنة ١٩١٠ رُسم لهم اسقف آخر باسم داود. وسنة ١٨٦٢ اقام مار ايليا عبراليونان بطريرك الكلدان كرسياً مطرانياً

في اورمي ورسم عليه السيّد توما اودو . وعليه يكون في اورمي نحو ٨٠٠ بيت من النساطرة ومن الكلدان الكاثوليك نحو ٣٠٠ بيت . والباقي هم بروتستانت وروسيُّون

ولكن لم يتهيأ للبروتستانت والروسيّين ان يحوزوا النجاح في نشر اضاليلهم . بل ناصبتهم الرسالة اللعازريّة التي فُتحت في بلاد العجم ولاسيا في اورمي وخُسراوا بسعي القنصل اوجين بوري (Eugène Boré) الفرنسي الرجل الشريف الذي صار بعد ذلك رئيساً عاماً على اللعازريّين. فانهُ طلب اولاً من عمّ شاه العجم حاكم اقليم اذربيجان على يد الكونت دي تُرسي (de Torsi) وزير فرنسا في فارس ان يخوّل حرية الدين الكاثوليكيين والاستقلال من سلطة النساطرة كما جرى في البلاد التابعة للدولة العثمانية نحو سنة ١٨٣٠ فتأيد هذا التحرير سنة ١٨٤٠ وهي سنة وصول الآباء اللعازريين اذربيجان لفتح الرسالات في خُسراوا واورمي . وكان رئيسهم الاول الاب فورنيه . وكانت الرسالة الاميركية قد نجحت في نشر الكتب التهذيبيّة وفتح المدارس ومعاطاة الطبابة مجاناً . فتحرّت الرسالة اللعازريّة هي ايضاً اتخاذ هذه الذرائع نفسها لا بل فاقت أندادها في ابواب شتى . فان هؤلاء المرسلين وفّقوا حياتهم مع عوائد اهالي البلد في شأن الاصوام والاعياد والشرب ليستميلوهم الى حبّهم واقاموا مركزاً لاخوات المحبة الناذرات انفسهنّ لخدمة الله وحبّ القريب . وانشأوا مدرسة اكليريكية سنة ١٨٥٢ بسعي الاب دارنيس والاب يوسف كالركا الذي بنى لهم بيعةً فاخرة في اورمي . وهو الذي بعد ذلك صار بطريركاً على اورشليم . واهل اورمي بعضهم يعيشون من الكروم والبساتين وأكثرهم يزاولون التجارة . وحالتهم غالباً هي افضل من غيرهم لانهم حاصلون على الراحة وترفّه العيشة

٢ وسولدوز اسقفيّة واقعة في الجنوب الشرقي من اورمي . ويوجد فيها نحو ٢٠٠ بيت من الكلدان منهم ١٢٠ نساطرة ونحو ستين بيتاً كاثوليكياً . والباقي بروتستانت

٣ وفي غربي سولدوز وشمال اورمي موقع تركاور ومركاور وهما الاسقفيّتان الكبيرتان اللتان قبل ست سنوات كانتا تحت سلطة ايران . والآن هما تحت سلطة

المثانيين. وفيها اكثر من ١٥٠٠ بيت من النساطرة واكبر قراها هي ماونة وفيها نحو ٣٤٠ بيت نساطرة ونحو ١٥٠ بيت كاثوليك. ولكن كلّ سكان مركوار نساطرة وكانت مركوار قبلًا ابرشيّة مطران شمسدين. اما توكوار فكانت مختصّة بمار شمعون ولكن لسبب المجاعة التي حدثت ثمّ سنة ١٨٨١ م أُعطيت من مار روبيل لحنانيشوع مطران بيت شمسدين ليتمكّن في ضيق تلك السنة من القيام بمعيشته. لكن حنّانيشوع المشار اليه مدَّ يدهُ الى اخذ العشور في السنة التالية ايضاً. واذ كان البطريرك سخيًا وشريف النفس ورأى ميلهُ الى هذه الابرشيّة تركها تحت تصرُّفهِ. واهل توكوار ومركوار ياكلون غالباً بوجه العموم خبزهم من فلاحة الارض. وبعضهم يقتنون الغنم ويفلحون الارض بواسطة الجواميس

٤ وفي جنوب توكوار موقع بلد بيت شمسدين. اعني ابرشيّة حنانيشوع اسحق الطرابوليط الذي له وحده حقّ سياميذ (سيامة) بطريرك النساطرة ولذلك يلقَّب بالسايوم. وفي شمسدين اكثر من ٣٠٠ بيت كلهم نساطرة. وهم يسكنون في ١٣ قرية صغيرة لهم احداها مار شمعون على اسم كنيسة مار يشوع اخي مار يهشوع الكمولي (ܟܘܡܠܝܐ) ولهم قرية اخرى تسمى تنير ولها اسقف آخر يُدعى دنخا يخضع لمطران شمسدين. واسم كنيستهِ مار قرياقوس

٥ وفي شمال غربي بيت شمسدين واقعة قرية مار يهشوع الكمولي المسمّاة باسم كنيسة هذا القديس التي بُنيت بسعي يوحنا من بيت عبا (ܟܘܡ ܠܝܐ) الكمولي الذي عاش في القرن الخامس. وبقربها قريتان أُخريان تنتسبان اليها وعدد سكان قرية مار يهشوع ينيف على ٣٠٠ بيت من النساطرة و٧٠ بيتاً منها هم كاثوليك. واغلبهم يعيشون من رعية الغنم ولهم غنم كثير وحياتهم مترفهة

٦ وفي الجنوب الغربي لقرية مار يهشوع توجد سهول كوار. وفي هذا البلد نحو ٨٠٠ بيت من الكلدان يسكنون في قرى متفرقة وبينهم نحو ٢٠٠ بيت كاثوليك. والباقي نساطرة. وكان فيها يوماً اسقفان احدهما كان يجلس في كاكوران اسمه صليوا. والآخر في وزيراباد اسمهُ اسطفانوس. وقد مات كلاهما. ولكن لكاكوران ناطور كرسي يدرس الآن في بيت مار شمعون ويستعدّ للارتقاء الى هذا الكرسي. ويعيش اهل كوار من الزراعة

وسنة ١٨٨٠ انتدب مار ايليا عبو اليونان بطريرك الكلدان شموئيل جبل الرئيس العام على الرهبان ليفتح رسالة في دزّة الواقعة في ناحية كوار . وسعى هذا بكل غيرة في تمهيد الطرق الى استمالتهم واقناعهم بحقائق الايمان . وبعد اتعاب واخطار جسيمة تجشمها بينهم تمكّن من ان يبني في دزّة دارًا ومصلى لسكنى الكهنة المرسلين الذين يقطنون فيها الى اليوم لنشر روح الكثلكة بين اولئك الاقوام النسطوريّة

٧ وفي جنوب غربي كوار توجد جبال شامخة واودية وعرة وعميقة تسمّى داسان العليا (ܕܗܘܡ ܚܠܡܫ) وهناك يسكن اهل جيلو . ويبلغ عددهم اكثر من ١٥٠٠ بيت ولهم اسقف اسمهُ مار سركيس يجلس في قرية مار زيعا المسمّاة على اسم شفيع كنيستها مار زيعا تلميذ مار اوجين . واكبر قرية في جيلو هي زيريني وفيها ١٠٠ بيت . ويجلس فيها رئيس او مدير جيلو كلها المدعو بملك . واسم كنيستها مار تامور تلميذ مار زيعا الطورباري . وروى بعضهم ان سكان جيلو هم من جنس اليهود وفي سحنتهم ولونهم شبهٌ بلون اليهود ومعنى اسمهم « ܓܝܠܘ » الجالية ولا يُبعد ان يكون اصلهم من اليهود الذين كانوا قد سُبوا الى نينوى وبابل في سالف الازمنة . وهؤلاء يقضون حياتهم غالبًا في المهاجرة وقليلون هم الذين يشتغلون في بلدهم . اذ ليس لهم مكان يشتغلون فيهِ من الزراعة وتربية الانعام والمواشي . وكثيرون منهم بالكدّ يملكون قطعة ارض يمكنهم ان يبذروا فيها كيلًا واحدًا من القمح يوازي قبع رأسهم . وقسم كبيرٌ من سكان جيلو مع ملكهم هم كاثوليك وهم يقام سائر المشائر المستقلّة على نحو ما

٨ وغربي جيلو موقع ناحية باز وفيها اكثر من ٧٠٠ بيت منهم ١٦٠ بيتًا من البروتستانت الذين فتحوا في قرية منها تسمى ماتخنيثا مدرسة ليلية يديرها القس دانيال البازي . وفي قرية شواورثا وغيرها ينيف عدد الكاثوليك على البروتستانت

٩ وجنوبي باز موقع ناحية طال التي يبلغ عدد سكانها سكان باز وهم تابعون لاهل تخوما

١٠ وجنوبي طال موقع سكان تخوما . وهؤلاء يبلغون نحو الفي بيت .

واكبر قرى تخوما هي القرية المسمّاة تخوما گوايا (ܬܚܘܡܐ ܓܘܝܐ) وسكانها يبلغون ٨٠٠ بيت وكنيستهم على اسم مار قيون واكثرهم كاثوليك

١١ وفي الجنوب الغربي من تخوما يسكن الولطونيّون (ܘܠܛܘܢܝ̈ܐ) ويبلغ عددهم ٦٥٠ بيتاً . وهم ايضاً عشائر نظير سكان ناحية طال لكنهم خاضعون لسلطة الطياريين . وحياة سكان هذه الاماكن معرّضة للاخطار كما يعيش سكان بيت شمسدين . واكبر كنيسة للولطونيين هي على اسم مار اديّ رسول الكلدان احد السبعين تلميذاً . ولهم بيعة اخرى على اسم مريم البتول عليها السلام

١٢ وعلى مقربة من الولطونيين العشائر المعروفة بالطياريّة او التياريّة . ويبلغ عددهم اكثر من ٥٠٠٠ بيت . واكبر قرية لهم هي اشيثا وعدد سكانها نحو ٦٠٠ بيت . وكنيستها على اسم مار كيوركيس . وهؤلاء الطياريّة يُقسمون الى اربع قبائل وهي : (١) ابناء الملكي (ܒܢܝ ܡܠܟܝ̈ܐ) و (٢) ابناء الأكرة (ܒܢܝ ܐܟܪ̈ܐ) . وهم سكان القسم الاعلى من بلاد التياريّة . وملكهم يسكن في كنشا . وهم يحبّون ملكهم ويجلّونه جداً بحيث ليس من يتجاسر ويخالف امره في شيء . والقبيلتان الأخريان هما سكان (٣) گيا (ܓܝܐ) و (٤) سكان قرية القصر . وهؤلاء يدبّرهم ويسوسهم ملك آخر يسمى ملك برخو ويجلس في راكولا دالا (ܪܐܟܘܠܐ ܕܐܠܐ) . وتسمى هاتان القبيلتان التياري السفلى . وملكها برخو هو الأول في الاكرام والقدميّة . وهو الآن كاثوليكي مع عدد غير يسير من سكان التياريّة السفلى . وهذان الملكان هما من قبيلتين ممتازتين . ومن المستحيل ان يقيم سكان التياريّة عليهم ملكاً دون رخصتهما . اعني التياريّة العليا من بيت ملك يعقوب . والسفلى من بيت ملك دانيال — ومن عاين سكان هذه البلاد تحقق ان كسوتهم او هيئة لبسهم لم تتغيّر وتُشبه بالكليّة كسوة الاثوريّين . لا بل صيغة لغتهم تُبيّن بوضوحٍ اجلى كونهم من سلالة الاثوريّين القدماء . فانهم يضمون في الاسماء المنتهية بالالف واواً عوض الالف . ويلفظون عوض « ܐܬܐ » (ܐܬܘ) . وعوض « ܡܠܟܬܐ » (ܡܠܟܬܘ) . ويجوز بنا ان نمدح خصال هؤلاء التياريّين وعوائدهم الحميدة التي يحقّ لهم ان يفتخروا بها . فان كلامهم هو نعم نعم ولا لا . وهم يأنفون من الكذب ويمتازون ببساطة قلوبهم واشتهروا بيسالتهم . فانهم

لا يخافون لا من القتل ولا من الحبس · واحسن عوائدهم ان السرقة لا وجود لها عندهم · فاذا حدث ان احداً منهم وجد سارقاً يُنفى حالاً من البلد بدون رحمة · ولذلك يتركون بكل امان جميع مقتنياتهم خارجاً عن بيوتهم · ولكن التربا في هذه الايام شرعوا لسوء الحظ يفسدون رويداً رويداً اخلاقهم

اما مسكن هؤلاء التياريّة فهو ضيّق جداً وصعب المراس فانهم لا يملكون الاراضي الطبيعيّة · فاذا اراد احدهم ان يتّخذ لهُ مزرعة صغيرة اقتضى عليهِ ان يقيم سدّاً من حجارة كبيرة على حافة التراب وينقل تراباً على ظهره فيفرغهُ في المكان ويساويهِ ليزرع فيهِ قليلاً من الحنطة او الشعير او الذرة وغيرها · ومن ثم يشبهون جداً اهل جيلو بقلّة زروعهم · ومع ذلك فهم لا يحتاجون مثل غيرهم الى الغلّات فيعيشون غالباً من غنمهم · وجبالهم مخصبة كثيرة الغابات · وهم يمتازون اخيراً بنظافة ثيابهم وبيوتهم عن سائر سكان الجبال نظير سكان تخوما وطال وغيرهما

١٣ وتحت جبال التياريّة يسكن البروارّيون المعروفون بالسفليين ويربو عددهم على ٧٠٠ بيت · وقسم عظيم منهم هم كاثوليك · فان اسقفهم يشوعياب كان قد اهتدى نحو سنة ١٨٨٥ الى الايمان الكاثوليكي ثم صادق عليهِ من جديد سنة ١٩٠٣ كما سنرى · فناصبهُ مار شمعون البطرك النسطوري ورسم عليهم اسقفاً آخر من عائلتهِ نفسها · والآن كلاهما يسكن في قرية دوري التي لها كنيسة على اسم مار كيوركيس

وما خلا هذه العشائر او القبائل التي ذكرناها توجد ايضاً قبائل اخرى من النساطرة الكلدان · وهم سكان لوين (ܠܘܝܢ) وبروار العليا او بلاد قودشانيس والالبقيون (ܐܠܒܩܝܢܐ) اهل بابناش (ܒܝܬ ܒܢܫ) وهي باش القلعة الحاليّة · وسكان تيّاري في وان · فهؤلاء مع قبائل الدزنيين المجاورين لقودشانيس يبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠ بيت

ومن الثابت ان النساطرة الكلدان الجبليين اعني بهم سكّان التياريّة والتخوميين واهل جيلو والبازيين والديزّيين واهل طال والوالطونيين واهل بروار العليا واللوينيين والالبقيين وسكان تياري وكوار واهل شمدين وسكان مار يشوع هؤلاء جميعهم ما خلا اهل بروار السفلى يُسمَّون هكاريّين · ويخضعون لتدبير العائلة الشمونيّة التي هي في غاية التوقير عندهم وتقيم في قرية قودشانيس · ويقوم

بادارتهم وشؤونهم في ايّامنا من هذه العائلة ثلثة اشخاص على الخصوص وهم مار شمعون بنيامين بطريرك النساطرة . والمطران اوراها والشماس نمرود بك اخوه المدبّر لصالح الكاثوليك الخارجيّة وقد اهتدى كلاهما الى الايمان كما سترى

اما حالة النساطرة فهي حالة يُرثى لها حقيقةً لانهم خالون من العلوم الادبيّة والدينيّة بالكليّة . وليس بينهم من يُعلّم ويتعلّم والذين يحسنون القراءة هم القسوس والشمامسة فقط بل تجد عددًا منهم لا يحكم جيدًا القراءة البسيطة . ونقول بالاجمال ان جميعهم لا يستطيعون ان يكتبوا باتقان شيئًا . ويندر فيهم من يعرف ويفقه قواعد ديانته جيدًا . ما خلا افرادًا قليلين تخرّجوا في مدارس اورمي

واما طريقة معيشتهم المادّية فهي على الاغلب صعبة ومتعبة جدًّا لانهم يقتاتون غالبًا من غنمهم . واشغالهم تقضي الكد والتعب لصعوبة جبالهم وقلّة اسباب الزراعة في اغلبها . ومع ذلك تراهم مع قلّة ذات يدهم يقومون كما كانوا الى يومنا هذا بجميع لوازم العائلة الشمعونيّة فيدفعون العشور بيدٍ سخيّة . وقد وفّر الآن البروتستانت والانكليز العطاء والدراهم عليهم بعد دخولهم بين النساطرة

ومن عوائدهم المذمومة انهم كانوا يؤذون الغرباء الذين يدخلون بينهم من الكاثوليك او غيرهم للتبشير . فاذا دخل احد ما بينهم كانوا يجرّعونهُ امرّ الشدائد والعذابات ويلقونهُ في اخطار مهلكة ليس له التخلّص منها . غير ان الامور لم تبقَ على مجراها الاوّل وهو امرٌ معلومٌ في تاريخ الكلدان ما قد بذلهُ الكرسي الرسولي والبطريركيّة الكلدانيّة والرسالات الكاثوليكيّة في سالف الازمان ولا سيما في اواسط القرن المنصرم من الوسائط الفعّالة والهمّة والنشاط بشان استمالة هؤلاء النساطرة وتقريبهم وهدايتهم الى جادّة الحقّ . وقد رأينا ان مار ايليا عبواليونان البطريرك قد فتح بينهم رسالة مهمّة بسعي الاب شمونيل المار ذكرهُ . وقد واصل اعمالها مار عبد يشوع الخامس خليفتهُ . ولكن اعظم من تفانى في سبيل اهتدائهم هو غبطة السيّد عمانوئيل الثاني بطريرك الكلدان الحالي . وكفاهُ فخرًا انه سعى لدى وجوههم باجراء هذا المشروع فلبّوا الى دعوتهِ

وفي بدء الصوم الكبير من سنة ١٩٠٣ قدم الموصل كبار عائلة مار شمعون بطريرك النساطرة وغيرهم من ذوي الجاه الذين اتوا نوّابًا عن القرى والعشائر وكان

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني : الالفاظ النصرانيّة في لغة عرب الجاهليّة (تابع)

الوحي وكتبهُ وائمّتهُ

ليس الدين طبيعياً فقط يدرك حقائقهُ العقلُ البشري ويقرّرها بالادلّة العقليّة . لكنّهُ وضعيّ ايضاً وهو الذي اوحى بهِ الله الى عبادهِ وارشدهم اليهِ على يد بعض اصفيائهِ المعروفين بالانبياء. كموسى كليمهِ تعالى ولاسيما السيد المسيح كلمة الله فطوراً اوحى بمناسك وفرائض معلومة كالختان والذبائح وطوراً انبأ باسرار تفوق ادراك البشر كاسرار العالم الآخر وبعض الحقائق الالهيّة . ولا يخفى انّ العرب في الجاهليّة لم يعرفوا وحياً ولم يدينوا بدين وضعيّ بل افسدوا الدين الطبيعيّ ولحقوا بالشرك وعبادة الاصنام كما تدلُّ عليهِ الآثار المتعدّدة المكتشفة في عهدنا

على انّ جهلهم بالوحي انّما سبق عهد المسيح وقد بيّنّا في القسم الاوّل من مقالاتنا نفوذ النصرانيّة بين العرب . ولنا في لغتهم العربيّة قبل الاسلام ما يثبت هذا القول . وذلك في استعمالهم للالفاظ الدالّة على الوحي وكتبهِ وائمّتهِ كما سترى

(الوَحي) هي اوّل لفظة تدل على قولنا . فانّها وردت في الشعر الجاهليّ قبل القرآن بمعنى تبليغ الله كلمتهُ الى انبيائهِ . قال ورقة بن نوفل الراهب النصرانيّ :

وجبريلُ يأتيهِ وميكالُ معْهما   من الله وَحيٌ يشرَحُ الصدرَ مُنزَلُ

فبقولهِ « الوحي المُنزَل » بيّن كونهُ يريد ديناً وضعياً بلّغ بهِ الله انبياءهُ . ومثلهُ قول اميّة بن ابي الصلت في الملائكة واصاختهم لوحي الله :

وسبطٌ صفوفٌ ينظرون قضاءهُ   يصيخون بالاسماع للوَحي رُكَّدُ

ابنٌ لوحي القدس جبريلُ فيهم . وميكالُ ذو الروح القويّ المسدَّدُ

وقد انتقلوا من معنى اللفظة الاصلي الى معناها المجازي فجعلوا الاسفار الالهيَّة وحياً والمكتوب فيها وحياً قال جرير بهذا المعنى (معجم ما استعجم للبكري ص ١٠٦):

لمن الديارُ ببارقٍ فالأنعُمِ . كالوحي في ورق الزَّبور المُعجَمِ

واذ كانوا يحفرون بعض آيات الوحي في الصخور اشاروا الى ذلك في اشعارهم . قال زهير يشبّه آثار الدار بكتابة الوحي (شعراء النصرانيَّة ص ٥٧٥):

« لمن طَلَلٌ كالوحي عافٍ منازلُهْ »

وعلى مثاله قال حسَّان بن ثابت (سيرة الرسول ص ٤٥١ ed. Wüstenfeld):

عرفتُ ديارَ زينبَ بالكثيبِ . كخطِّ الوحي في الورق القشيبِ

وقد جاءت على لفظ الجمع في معلَّقة لبيد قال يشبه مسايل جبل ريَّان ببقايا كتابة الوحي في الحجارة:

فمَدافعُ الريَّانِ عُرِّيَ رسمُها . خلقًا كما ضمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

وقد دعوا كتب الوحي بالفاظ اخرى تدلُّ على احترامها ككلام الله . فمنها (السِّفر) واصلها من العبرانيَّة סֵפֶר والسريانيَّة ܣܦܪܐ ومعناها الكتاب وقد خصُّوا بها الكتب الالهيَّة . قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ١٠٣): « السِّفر الكتاب من التوراة والانجيل وما اشبههما » . وقد وردت في القران في سورة الجمعة وفي الحديث بالمعنى ذاته . وروى البكري في معجم ما استعجم (ص ٣٦٩) دخول الحسين بن ضحّاك الى احد اديرة النصارى بينما كان الراهب يقرأ « سِفْرًا من اسفارهم » اي كتبهم المقدَّسة وكانوا يدعون كلًّا من تلك الاسفار (بكتاب الله). قال عديّ بن زيد (شعراء النصرانيَّة):

ناشدتنا بكتاب الله حُرمَتَنَا . ولم تكن بكتاب الله ترتفعُ

وقد دعوا ايضاً كتب الوحي (مجلَّة) وعلى هذا رُوي بيت النابغة في بني غسَّان:

مَجلَّتهم ذاتُ الإلهِ ودينُهم . قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ

قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ١٦١): « المجلَّة الصحيفة يُكتَب فيها شيء

من الحكمة . واصل الكلمة من العبرانيّة מדע اي الوحي والتبيان . وقد وردت في سيرة الرسول لابن هشام (ص ٢٨٥ .ed. Wüstenfeld) حيث ذكر « مجلّة لقمان يعني حكمة لقمان » وفي حديث انس « ألقى الينا مجالّ اي صُحُفاً »

وربَّما دعوا كتاب الوحي (بالصَّحيفة) جمعها صحائف وصُحُف واصلها من الحميريَّة والحبشيَّة بمعنى الكتاب والرسالة مطلقاً . قال لقيط الايادي في اوَّل قصيدتهِ يحذّر فيها قومهُ من كسرى (الاغاني ٢٠ : ٢٤) :

كتابٌ في الصحيفةِ من لقيطٍ الى مَنْ بالجزيرة من إيادِ

ومثلها « صُحُف موسى وابراهيم » في القرآن يُراد بها كُتُب منسوبة الى موسى وابراهيم

ومثلها (المُصْحَف) بتثليث الميم اي الكتاب والمسلمون يخصّونها بالقرآن . وقد سبق شعراء الجاهليَّة فنطقوا بها واطلقوها على اسفار النصارى قال امرؤ القيس (راجع ديوانهُ في العقد الثمين ص ١٦١) وورد في قولهِ لفظ (الآية) اشارة الى مضامين تلك الاسفار :

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ وعِرفانِ ورسمٍ عَفَتْ آياتُهُ منذ ازمانِ
أتتْ حِججٌ بعدي عليهِ فأصبحتْ كخطِّ زَبُورٍ في مَصاحفِ رُهبانِ

واصل الكلمة من الحبشية መጽሐፍ (مَصْحَف) من ጸሐፈ (صَحَفَ) اي كَتَبَ

وقد استعملوا لفظة (القرآن) ولم يتّفقوا على اصلها فنهم مَن همزها وجعلها مصدراً لقرأ بمعنى القراءة . ومنهم من رجَّح عدم همزها فقال قُرَان واستشهدوا ببيت حسَّان بن ثابت في هجوهِ لبني جمح (سيرة الرسول ص ٥٢٦) قال (١ :

جَحَدوا القُرَانَ وكذَّبوا بمحمَّدٍ واللهُ يُظهِر دينَ كلِّ رسولِ .

وعليهِ تكون القُرَان من قَرَنَ اي جمعَ بمعنى مجموع الآيات . وعلى رأينا انَّ الهمز افضل وهو الشائع وعلى هذا اللفظ وردت في لاميَّة كعب بن زهير قال :

مَهْلاً هداك الذي اعطاك نافلةَ ٱلقُرآنِ فيهِ مواعيظٌ وتفصيلُ

وعندنا انَّ اصل الكلمة من السريانيَّة ܩܪܝܢܐ وهي مصدر ܩܪܐ ومعناها

---

١) راجع كتاب نولدك (Noeldeke: Gesch. d. Qorans. p. 25-27)

القراءة وقطعة من الكتاب لا سيما الكتاب المقدَّس ويقال بهذا المعنى « رأس القِريان » (ܪܫ ܩܪܝܢܐ)

وقد استعملوا (الفُرقان) بمعنى القرآن قالوا دُعي بذلك لانهُ يفرق الحقّ من الباطل . وجاءت الكلمة في القرآن في سورة البقرة بمعنى التوراة حيث قال: « آتَينا موسى الكتاب والفُرقان » (راجع تاج العروس في مادَّة فرق) . واصل هذه الكلمة على ما نرى من السريانيَّة وهي ܦܘܪܩܢܐ بمعنى النجاة والخلاص مع الاشارة الى الفصل والتفريق . وقد وردت بمعنى الخلاص في القرآن في سورة الانفال حيث قال: « إن تتَّقوا الله يجعَلْ لكم فُرقانًا » فشرحهُ ابن سعيد بقوله: « الفرقان النصر على الاعداء » وكذلك شرح ابن دريد قول القرآن « يوم الفُرقان » بيوم النصر

ثمَّ دعوا فصول القرآن (سُورة) فهمزها بعضهم واهمل همزَها غيرهم فقالوا هي البقيَّة من الشيء والقطعة منهُ . وقال غيرهم هي من السُورة بمعنى الرتبة والشرف كما قال النابغة يمدح النعمان :

أَلَم تَرَ انَّ الله أعطاك سُورةً تَرى كلَّ مَلْكٍ دونها يتذَبذَبُ

والمرجَّح ما ارتآهُ في ذلك العلَّامة نولدك (Gesch. d. Qorans, p. 24) انَّ اصلها من العبرانيَّة שורה معناها المِدْماك والساف من البناء ومجازًا هي سطور الكتابة والقطعة منها .

ثمَّ انَّ وسيط الوحي بين الله والبشر (النبيّ) شرحهُ في تاج العروس (١ : ١٣٣) بقوله: « النبيّ على فَعيل الطريق الواضح يُهمَز ولا يُهمَز . . ومنهُ أُخذ الرسول لانهُ الطريق الْموضح الْموصل الى الله تعالى » وعلى رأي العلماء هذا شرح بعيد واللفظة من العبرانيَّة נביא والسريانيَّة ܢܒܝܐ اي الناظر والرائي سلفًا لما يوحي اليهِ الله من الامور المستقبلة . وقد جاءت في الشعر الجاهليّ قال اميَّة بن ابي الصلت عن مريم العذراء كتاب البدء للمقدسيّ (٣ : ١٢٣) :

فأدرَكَها من ربِّها ثمَّ رحمةٌ بصدقِ حديثٍ من نبيٍّ مكلِّمِ

وقال آخر :

كلُّ اهل السماء يدعو عليكم من نبيٍّ وملأكٍ ورسولِ

ومثل النبيّ (الرَّسُول) اي المرسل من الله الى الناس قال اميّة في بعثة الله لموسى الكليم (سيرة الرسول لابن هشام ص ١٤٥):

وأنت الذي من فضل مَنٍّ (١ ورحمةٍ ... بَعَثْتَ الى موسى رسولاً مناديا

وقال ايضاً من لسان الملاك جبرئيل الى مريم يبشرها بالمسيح (كتاب البدء ٣: ١٢٣):

أنيبي وأعطي ما سُئِلْتِ فانّني ... رسولٌ من الرحمان يأتيكِ بابْنِمِ (٢

وقد استعملوا بمعنى الرسول (النَّذير) قال اميّة بن ابي الصلت (كتاب البدء ٢: ١٤٦) من لسان ابليس:

يقول خزّانها ما كان عندكمُ ... ألم يكن جاءكم من ربّكم نُذُرُ

*

واخصّ ما عرفهُ العرب في الجاهليّة من الكتب المنزلة (التوراة والزبور والانجيل). فقالوا في التوراة (تورية) ايضاً وهي كتب موسى الخمسة اي التكوين والخروج والعدد وسفر الاحبار وتثنية الاشتراع. ثمّ اطلقوها على اسفار العهد القديم اجمالاً. ومن غريب ما قاله بعض اللغويين في اصل هذه الكلمة أنّها مصدر ورّى الزنادُ توريةً اذا اخرج نارهُ وانّ التوراة لغة طيّ في التورية وكلاهما بمعنى الاضاءة. وفي شرح المفضليات (ص ٤٤٧ ed. Lyall) انّ توراة اصلها وَوراة بقلب الواو تاء. واصحّ من هذا ما رواهُ صاحب التاج عن الزجّاج حيث قال: «هو لفظ غير عربيّ بل هو عبرانيّ اتّفاقاً» وهو في العبرانيّة תורה ومعناها التعليم والحكمة. وقد وردت الكلمة في الشعر القديم. قال السموءل (راجع طبعتنا لديوانهِ ص ١٢):

وبقايا الاسباط اسباط يعقو ... بَ دارسُ التَّوْراةِ والتابوتُ

وقد ذكروا (موسى) صاحب التوراة كما رأيت في باب (الرَّسول). وقال السموءل (ص ١٢):

وانفلاقُ الأمواجِ طودَين عن مو ... سى وبَعْدُ المسلَّكُ التالوتُ

١) وفي خزانة الادب (١: ١١٩): من فضل نِعْمَةٍ

٢) اي إرضي يا مريم بما يطلب الله منك فابشرك بولدٍ ابنٍ اي المسيح. وأبنم كابن والميم للتفخيم

وقال المضرّس بن ربعي (ياقوت ٣ : ٨٧) من ابيات :

فلمّا لحتام قرأنا عليهمُ نجيَّةَ موسى ربُّهُ اذ يحاورُهْ

وقد اكثر العرب من ذكر (الزَّبُور) . قال المرقّش الاكبر (لسان العرب ٣:١٦) :

وكذلك لا خيرٌ ولا شرٌّ على احدٍ بدائمْ
قد خطَّ ذلك في الزبو رِ الاوَّليَّات القدائمْ

وقال امرؤ القيس (شعراء النصرانيَّة ص ٦٥) :

لمن طَلَلٌ أبصرتُهُ فشجاني كخطِّ زَبُورٍ في عسيبٍ يمانِ

قال ابن الكلبيّ في كتاب انساب العرب (Ms de Paris, ff. 160) : « انَّ امرء القيس اوَّل من شبَّه الطَّلل بوحي الزَّبور في عسيبٍ يماني » . وقد مرَّ بك قوله :

أتتْ حججٌ بعدي عليها فاصبحتْ كخطِّ زَبُورٍ في مصاحفِ رهبانِ

وجمعوا الزَّبور (الزُّبُر) قال المرّار بن منقذ في المفضّليات يصف دارًا :

وترى منها رسومًا قد عفَتْ مثل خطِّ اللامِ في وحي الزُّبُرْ

ويشبهه قول الآخر :

او زُبُرٌ حِمْيَرٍ بها احبارُها بالحِمْيَرِيَّةِ في عسيبٍ ذابلِ

وقال كذلك اميَّة بن ابي الصلت (كتاب البدء ٢ : ١٤٦) في يوم الدين

وأُبرزوا بصعيدٍ مستوٍ جُرُزٍ (١ وأُنزل العرشُ والميزانُ والزُّبُرُ

امَّا اصل الكلمة فقد اشتقُّوهُ من قولهم زَبَرَ الكتابَ زَبْرًا كتبهُ . قال صاحب التاج (في مادَّة زَبَرَ) : « قال الازهري واعرفهُ النقش في الحجارة وقال بعضهم زبرتُ الكتاب اذا اتقنتُ كتابتهُ » . وجعلوا الذَّبْر كالزَّبْر كما قال صخر الغيّ :

فيها كتابٌ ذَبْرٌ لمقترئٍ يعرفهُ البهم ومن حشدوا

أبلغ كبيرًا من خلفهُ يجري فيها صحائفٌ جُدُدُ

ورُوي في حديث لابن الكلبيّ (ياقوت : معجم البلدان ١ : ٩١) ذَبَرَ بالدال قال في وصف صنم ودّ : « قد ذُبِر عليه حلّتان اي نُقش » . (قلنا) والصواب عندنا أن الزَّبْر من الزَّمر والزَّبور كالمزمور وانَّما أُبدلت الميم باءً كما جرى في لفظة « زمن » بالعربية وهي في السريانيَّة ܙܒܢܐ بالباء . فكذلك الزَّبور او المزبور من العبرانيَّة מזמור وفي السريانيَّة ܡܙܡܘܪܐ و ܡܙܡܘܪܬܐ وهو التسبيح

---

١) الجُرُز الارض المجدبة . وفي الاصل حَرَز

ومثل التوراة والزبور (الإنجيل) اخذها العرب من اليونان εὐαγγέλιον بوساطة سريانيّة ܐܘܢܓܠܝܘܢ او اخذوها توًّا من الحبشيّة ወንጌል على هذه الصورة. وعلى كلّ حال انّ اللفظة سبقت الاسلام. قال عديّ بن زيد (كتاب الحيوان للجاحظ. طبعة مصر ١ : ٦٦ Ms de Vienne. ff. 213r):

وأوتيا المُلْكَ والإنجيلَ نقرأُهُ   نشفي بحكمتهِ أحلامنا عَلَلا
من غير ما حاجةٍ الّا ليجعلَنا   فوق البريّة أرباباً كما فعلا

وروى البكريّ في معجم ما استعجم (ص ٣٦١) لشاعر لم يذكر اسمهُ بيتاً هجا فيهِ راهباً هجر الرهبانيّة:

هجر الانجيلَ حبُّ الصبي   ورأى الدنيا غرورًا فركَنْ

وقال في محلّ آخر عن غلام يتغنّى بتلاوة الانجيل:

اذا رجّع الانجيلَ واهتزَّ مائدًا   تذكّرَ محزونُ الفؤادِ غريبُ

والرجيح انّ النابغة اراد الانجيل في ذكرهِ لمجلّة غسّان لمّا قال:

مجلّتهم ذاتُ الإلهِ ودينُهم   قويمٌ فما يرجون غير العواقبِ

وكذلك من المحتمل انّ اميّة بن ابي الصلت اراد الانجيل في البيت التالي حيث وردت لفظة الرقّ ومعناها السِفر (راجع الاضداد لابن الانباري ص ٨١ ولسان العرب ٩ : ٢٥٨) وهو يمدح بني اياد قومهُ النصارى:

قومٌ لهم ساحةُ العراقِ اذا   ساروا جميعاً والقِطُّ والقلمُ

. وكما ذكروا موسى وداود صاحبي التوراة والزبور كذلك ذكروا السيّد المسيح مع ذكرهم لانجيلهِ الشريف وهم يدعونهُ (عيسى) . روى ابن العربيّ في محاضرة الابرار (٢ : ٥٠) عن لسان قسّ بن ساعدة اسقف نجران: «الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عبث ولم يخلق الناس سدى من بعد عيسى واكترث...». وفي اسم عيسى هذا سرٌّ من اسرار الاشتقاق العربية. قال في التاج (٤ : ٢٠٠): «قال الجوهري عيسى عبراني او سريانيّ. قال الليث: هو معدول عن ايشوع كذا يقول اهل السريانيّة» على انّ عدولهم هذا من باب التراكيب . ولا نجد علمًا قد تبدّل في العربيّة على هذا المنوال . وعندنا انّ هذا التبديل جرى على يد اليهود الذين ادخلوهُ في العرب بغضًا

بالنصارى فدعوا يسوع باسم عيسى او عيسو وهو اخو يعقوب الذي نفاه الله من شعبه وكان هو وقومه الادوميّون يُعَدُّون رجساً في بني اسرائيل فقلبوا اسم يسوع ونقلوا عينه الى اوّله لجعلوا الرأس ذنباً وزعم بعضهم انّ اصل عيسى «يوسى» قلبوا الواو ياء فصارت «عيسى». قال امية بن ابي الصلت (كتاب البدء ٣ : ١٢٣) :

وفي دينكم من ربّ مريمَ آيةٌ منبّئةٌ بالعَبْد ١) عيسى بن مريمِ

والسيّد يسوع اسمٌ آخر اشيع منه عند العرب وهو «المسيح» من العبرانيّة משיח والسريانيّة ܡܫܝܚܐ وهما كالعربيّة مسيح واليونانيّة Χριστός اي الممسوح بدهن الكهنوت والملك كما كانوا يفعلون باحبار بني اسرائيل وملوكهم وقال العرب غير ذلك. روى في تاج العروس عن شمر «انّ المسيح دُعي بذلك لبركته اي لانّه مُسح بالبركة». وقال الراغب: سُمّي عيسى بالمسيح لانّه مُسحت عنه القوّة الذميمة من الجهل والشره والحرص وسائر الاخلاق الذميمة ... وفي بعض الاقاويل المسيح من السَّيح لانّه كان يسيح في البراري ويذهب في الارض فاينما ادركهُ الليل صفّ قدميه وصلّى حتى الصباح». وكل هذه آراء ضعيفة والصواب ما قلناه انّه من المسح. وقد تكرّر اسم المسيح في الشعر القديم. قال عمرو بن عبد الحقّ ويروى لغيره (اطلب المعاجم في مادّة ابل):

وما قدّس الرهبان في كلّ هيكلٍ ابيل الابيلين المسيح

وروي للسموأل (راجع ديوانهُ صفحة ٣٢) قوله:

وفي آخر الأيّام جاء مسيحُنا فأهدى بني الدنيا سلامَ التقدّسِ

وقال امية يذكر مجيء المسيح في آخر الازمنة ليدين البشر:

ايّام يلقى نصاراهم مسيحَهمُ والكائنين له ودًّا وقربانا

وذكر آخر محاربة السيد المسيح للمسيح الدجال وانتصاره عليه (راجع اللسان في مادّة مسح ٣ : ١٣٠):

إذِ المسيحُ يقتلُ المسيحا

وكانوا يسمّون المسيح (بالابيل) ومعناهُ الناسك والزاهد بالدنيا ودعوهُ بابيل الابيلين لانّه كان بزهده قدوة الرهبان كما مرّ بك

---

١) في الاصل: والعبد ونظنّها تصحيفاً. وقد دعا المسيح عبداً لله من حيث ناسوته

وقد عظَّموا ليلة مولد المسيح فدعوها ليل التمام . قال في اللسان (في مادَّة تمَّ ١٤ : ٣٣٤) : « قال عمرو بن شميل : ليل التمام اطول ما يكون من الليل . . قال الاصمعيّ . ويطول ليل التمام حتى تطلع فيهِ النجوم كلها وهي ليلة ميلاد عيسى . . . والنصارى تعظّمها وتقوم فيها »

ولم يذكروا فقط السيّد المسيح بل ذكروا امَّهُ مريم العذراء كما رأيت . وذكروا القديس يوحنا الصابغ المتقدّم امام وجهِ وذكروا تلامذتهُ . وممَّا رووا عن (مريم العذراء) بتوليَّتها وبشارة الملاك اليها بابنها الالهيّ وحبلها الطاهر بابنها من الروح القدس . ورد ذلك في القرآن وسبقهُ امية بن ابي الصلت فقال وفي قولهِ نظرٌ لما ادخلهُ فيهِ من المزاعم المنقولة عن الاناجيل غير القانونيَّة (راجع كتاب البدء للمقدسي ٣ : ١٢٣) :

وفي دينكم من ربّ مريم آيةٌ منبِّئةٌ بالعبد عيسى بن مريمِ
انابتْ لوجه الله ثمَّ تبتَّلت فسبَّحَ عنها (١ لومةَ المتلوِّمِ
فلا هي همَّت بالنكاح ولا دنَتْ الى بشرٍ منها بفرجٍ ولا فمِ
ولطَّت حجابَ البيت من دون أهلها تغيبُ عنهم في صحاري رمرمِ (٢
يحارُ بها الساري اذا جنَّ ليلهُ وليس وان كان النهارُ بمعلَمِ
تدلَّى عليها بعدما نام اهلُها رسول فلم يحصَر ولم يترمرمِ (٣
فقال : ألا تجزَعي وتكذّبي (٤ ملائكةٌ من ربّ عادٍ وجُرهُمِ
أنيبي وأعطي ما سُئِلتِ فإنَّني رسولٌ من الرحمان يأتيكِ بابنمِ (٥
فقالت لهُ أنَّى يكونُ ولم أكُنْ بغيًّا ولا حُبلى ولا ذاتِ قيِّمِ (٦

١) سبَّح عنها اي أبعد عنها ونزَّهها

٢) يقال لطَّ البابَ اذا اغلقهُ . ورمرم علَم مكان . والرمرم ايضًا الحشيشة المشوكة المعروفة بالزمرام فنسب الصحاري اليها . يريد الشاعر ان مريم خرجت الى الصحراء . وهناك بشَّرها الملاك بمولد ابنها وهو قول استعارهُ الشاعر من مزاعم الكتبة غير القانونيين

٣) حصِر قصر عن الكلام . وترمرم حرَّك شفتيهِ بالكلام . يريد انَّ كلامهُ لم يكن كمثل كلام البشر

٤) اي لا تخيبي ظنَّهم فيك

٥) أعطي ما سُئِلتِ اي ارضَي بما يطلبهُ منك الربّ . وابنم تفخيم ابن

٦) ذات قيِّم اي ذات زوج . والبيت ترجمة قول العذراء (لوقا ١ : ٥) : « وكيف يكون ذلك وانا لا اعرف رجلًا »

أأحرجُ بالرّحمان ان كُنتَ مؤمناً كلاميَ فاقْعُدْ ما بدا لكَ او قمِ (١
فسبّحَ ثمَّ اعتَرّها (٢ فالتقت بهِ غلاماً سويَّ الخَلْقِ ليس بتوأمِ
بنفخته في الصدر من جيب درعها وما يصرم الرحمنُ مِنْ أمرٍ يُصرَمِ (٣
فلمّا أتمَّتهُ وجاءت لوضعهِ فآوى لها من لومهم والتندُّمِ (٤
وقال لها مَن حولها: جئتِ مُنكَراً فحقٌّ بأن تُلحَي عليهِ وتُرجَمي (٥
فأدركها من ربّها ثمَّ رحمةٌ بصدقِ حديثٍ من نبيٍّ مكلّمِ
فقال لها: انّي من الله آيةٌ وعلّمني والله خيرُ معلّمِ
وأُرسِلتُ لم أُرسَل غويّاً ولم أكن شقيّاً ولم أُبعَثْ بفحشٍ ومأثمِ

امّا (يوحنّا المعمدان) السابق امام وجه المسيح فقد شاع ذكرهُ بين عرب الجاهلية وقد رأيت انَّ احدى الكتابتين العربيَّتين السابقتين لعهد الاسلام كانت على باب كنيسة في حوران مشيَّدة على اسم القديس يوحنّا (راجع الصفحة ٧١ مع رسم هذه الكتابة في الجدول ٦٨ — ٦٩) . وقد ذكر القرآن في سورة عمران (ع ٣٣ و ٣٤) ما روى عنهُ القديس لوقا في الانجيل من بشارة الملاك لابيهِ زكريّا ومن مولدهِ العجيب ووصفهُ هناك بكونهِ « مصدّقاً بكلمة من الله وسيّداً وحَصوراً ونبيّاً من الصالحين » فاطراً ايمانهُ ورفعة مقامهِ وعفّتهُ ونبوّتهُ

والعرب يدعون يوحنّا المعمدان باسم (يحيى) وهو ايضاً مع اسم عيسى احد ألغاز التبديل التي لم يذكر اللغويون سببها . ومن المعلوم انَّ يوحنّا اسم عبراني مركّب من كلمتين « يوحنّن » (יוחנן) او « يهوحنن » (יהוחנן) اي حنَّ الله وترحّم ومنهُ السريانية ܝܘܚܢܢ فكيف اذن قُلب بيحيا . على رأينا انَّ الاسم قد تصحّف في العربية وذلك انهُ كان في الاصل « يُحنّا » فكتبوهُ قبل وضع النقط والحركات

١) حرج بالرحمان اي كفر والاصل مصحَّف بأحرجُ . والمعنى كيف آثمُ امام الرحمن . فان صدّقتَ قولي فبهِ والّا فافعل ما بدا لك من اقامة او ذهاب

٢) اعترّها اي اعترض لها . يشير الى قول الانجيل انَّ الروح القدس ظلّلها فحبلت بمسيحٍ وقوّتهِ باثها المسيح دون زرع بشري . فالنفخة في صدرها مجاز

٣) صرمهُ بتّهُ وفصلهُ . وقولهُ « يلِ أمرٍ » اي من الامر

٤) في البيت تصحيف . والمعنى انَّ اليهود لمّا رأوا ابنها شكّوا في بِرارتها . وهو زعمٌ من مزاعم الاناجيل الزور . ومثلهُ قولهُ عن المسيح انهُ تكلّم في المهد ليبرّر والدتهُ الطاهرة وورد ذلك في انجيل الطفولية المدسوع

٥) لحاهُ بكّتهُ ولامهُ وفي الاصل : بأن تُلحِينَ وهو تصحيف

« يحيا » فتزلوهُ « يَحياً او يحيى ». ولا نرى وجهاً آخر لتعليل هذا التغيير الذي حدث كما نظنّ قبل الاسلام لجرى عليهِ المسلمون وهم يدعونهُ بيحيى بن زكرياً النبيّ او يحيى الحَصُور لعفافهِ عن النساء. وقد ورد اسم يحيى في الشعر الجاهليّ كما سترى

(والحَوارِيون) تلاميذ السيّد المسيح عند العرب وقد اختلفوا ايضاً في اصل هذه اللفظة فقال البعض انّ معناها القصّار لانّ رسل المسيح كانوا يقصرون الثياب وهو قول لا سند لهُ اذ لم يُعرَف احد من الرسل بزاولة القصارة. وقال غيرهم هو من الحَوَر اي شدّة بياض العين في شدّة سوادها قالوا دُعوا بذلك لصفاء نيّاتهم وقيل بل لأنّهم كانوا صفوة الانبياء. (راجع لسان العرب في مادّة حور). وان صحّ ذلك يكون اشتقاق الكلمة من السريانية ܚܘܪܐ اولى ومعناها الابيض والصافي البياض والنقيّ. والصواب ان اللفظة حبشيّة ሐዋርያ (حَوَاري) ومعناها الرسول. وما لا ريب فيهِ انّ اللفظة سبقت الاسلام. وقد جاءت في القصائد المعروفة بالاصمعيّات (ص ٧٥ Ahlwardt) في بيت للضابئ بن الحارث بن ارطاة البرجميّ يشير الى رغبة رسل المسيح في الموت لاجل سيّدهم استشهاداً:

وكرٌّ كما كرّ الحواريُّ يبتغي الى الله زُلفى ان يكرّ فيُقتلا (١

وقال السموءل يذكر الحواريّ (راجع طبعتنا لديوانهِ ص ١٢):

وسُليمن والحواريّ يحيى ومتّى يوسفَ كأنّيّ وليتُ

يريد بالحواريّ يحيى على ما نظن يوحنّا الحبيب وكذلك ذكر متّى الرسول فخفّف. امّا « يوسف » فلعلّهُ يوسف المعروف باخي الربّ (متّى ١٣ : ٥٥) او يكون يوسف اسم ابي متى كأنّهُ اراد متّى بن يوسف.

ومؤنّث الحواريّين (الحَوَاريّات) قالوا هنّ نساء الأمصار لبياضهنّ. قال ابو جلدة وهو مسهر بن النعمان اليشكريّ (لسان العرب ٥ : ٢٩٩)

فقُلْ للحَوَاريّات يبكينَ غيرنا ولا تبكِنا الّا الكلابُ النوابحُ
بكينَ الينا خيفةً ان تُبيحها رماحُ النصارى والسيوفُ الجوارحُ

قال جعل اهل الشام نصارى لانها تلي الروم وهي بلادها » (لهُ بقيّة)

---

١) ويروى : فيُقبَلا

كلمة

في تاريخ اشعَّة رونتجن ومنافعها

للدكتور الياس افندي الحاج

احد اعضاء جمعيَّة التداوي بالكهرباء الباريسية

لا يكتفي العالم بالنظر الى الحوادث الطبيعيَّة ليُسرّ برؤياها وليقضي منها العجب بل يستقصي ايضاً تولّدها ومبعثها ويتتبّعها ليكشف غوامضهــا واسرارها فيدرسها ليقف على النواميس التي تربطها فيشرح كيفيَّتها ويعلّلهــا ويستخرج منها النافع ويدرأ ما ينتج عنها من الاضرار

واعظم شيءٍ استلفت انظار العلماء في القرون المتأخرة انَّما هو الكهرباء فانهُ منذ اكتشف العالم الايطاليّ ݣلفاني في اواخر الجيل الثامن عشر اسرار الكهرباء اخذ اساتذة هذا الفن يتعمّقون في درسها ويتفنّنون في توليدها تارةً بالبطاريّات وطوراً بالاحتكاكات. وسعوا بضبطها تحت قوانين تمكّنهم من استخدامها لمنفعة الانسان

واوَّل من توسّل بالكهرباء لفائدة الطبّ على طريقة منظَّمة هو دوشن البولوني (Duchenne de Boulogne) في اواسط الجيل التاسع عشر لكن شتَّان ما بين الادوات التي استعان بها والتي هي اليوم في حكم المتطبّبين فانهم في اوَّل الامر لم يتّخذوا لمعالجة مرضاهم سوى آلة من الكهربائيَّة الراكدة. ثمَّ اتّصلوا بالامتحانات المتوالية والدرس التابع الى تحسينات وتنظيمات عديدة فقوُّوا المجاري وصاروا ينالون بثانية واحدة بمجرى كثير التواتر ينتج منهُ بضعة ملايين من الاهتزازات. ثمَّ جعلوا يدرسون مفعول هذه الشرارات الجهنَّمية في الاجسام وانتشارهــا في الهواء وانتقادها في الاوعية الخالية منه

ففي الهواء المكشوف ترى هذه الشرارات عبارة عن صواعق صغيرة امَّا في الاوعية الخالية نوعاً من الهواء فترى القطبين يولّدان شرارات يختلف تواترها باختلاف القوة المولّدة . وامَّا اذا كان الفضاء زائداً وبالغوا في إفراغ الآنية من الغازات فترى نوراً ينبعث من القطب السلبي سائراً منهُ الى القطب الايجابي على خطّ مستقيم واذا

كانت القطوب متعددة ينقسم النور الى اشعة على عدد تلك القطوب اي انهُ يتولّد في القطب السلبي شعاع واحد يتّجه الى القطوب الايجابيّة على تعدادها

وفي الاساطين الزجاجيّة المنسوبة الى كروكس (Crookes) حيث الفضاء بالغ جدًّا لا يعود النور ينقسم مصوبًا الى القطوب الايجابيّة بل يتّجه رأسًا امامهُ نافذًا في كل ما يصادفهُ من زجاج او غيره. وهذا الاختبار اجراه كروكس سنة ١٨٦١. ويستنتج من امتحانات غولدستين (Goldstein) سنة ١٨٧١ انه لا يمكن تولّد النور الناتج عن الاشعة الكهربائيّة والصادر من القطب السلبي في الفضاء الّا اذا صادف ذلك الشعاع جسمًا صلبًا. وهذه الاشعة تسوّد الورق الفوتوغرافي ولها مفعول على بعض الاملاح ككلورور الفضة وبيكرومات البوطاسا وأكسلات الحديد. كما انه اذا وُجد جسم بين مصدر هذه الاشعة والجسم الصلب ظهر خيالهُ بين الاثنين

وهكذا اتصل غولدستين سنة ١٨٧٦ الى ان أثبت كون القطب السلبي يولّد شيئًا مجهولًا لا شكّ فيه لكنّ ماهيّتهُ غير مقرّرة وقد وافقهُ العلماء على رأيه. ومما ارتآهُ كروكس ان ذلك الشيء مادّي. وخالفهُ غولدستين في رأيه فزعم انّ هناك قوّة ليس الّا

وفي سنة ١٨٨٣ ارتأى العلّامة ڤيدمان (Wiedmann) ان هذه الاشعة سلبيّة ولذلك اصطلحوا على تسميتها بالاشعّة الكاثوديّة (rayons cathodiques) وهي مركّبة من تموّجات قليلة الطول

وبقي العلماء يدرسون هذه الاشعة ويختبرونها حتى سنة ١٨٩٢. وكان غولدستين يظن انها لا تستطيع ان تنفذ في الاجسام الصلبة مهما قلّت كثافتها .

امّا هرتز (Hertz) فاثبت انّ تلك الاشعّة تخرق بعض المعادن اذا كانت قليلة الكثافة وذلك بانه عرض قطعة زجاج الاورانيوم مغطاة من جهة الكاثود بورقة من ذهب فرأى ان الزجاج بقي مشعًّا. واخذ ايضًا بعض قطع من الميكا وألصقها على الورقة الذهبية فرأى خيالها من الجانب الآخر قويًّا لكنهُ قليل الوضوح

وفي سنة ١٨٩٤ راى لينار (Lénard) ان الورق الحسّاس يسودّ عن بُعد وانّ اكثر الاجسام تشعّ من جرّاء ذلك الشعاع

وكانت السنة ١٨٩٦ سنة الاكتشافات الطبية ففيها اكتشفوا مصل الخناق وفيها عرض رونتجن على جمعية التداوي بالعوامل الطبيعية في مدينة وترزبورج خلاصة امتحاناته واكتشافهُ العجيب الذي لم يَعُد للطبّ ولا للجراحة غنًى عنه نريد بهِ اكتشافهُ للاشعَّة النافذة في الاجسام الصلبة المعروفة باسمهِ (rayons Roentgen) وطريقة اكتشافهِ هو انه لاحظ صدفةً تشعُّع بعض قُطيعات من البلاتينوسيانور الباريوم (platinocya-nure de barium) قرب اسطوانة هيثورف المغطاة بكاملها بكرتون اسود كثيف لا يخرقهُ النور الاعتيادي ولا اشعَّة الطيف فوق البنفسجية . ثم رأى ان المرآة المركَّبة من البلاتينوسيانور تشعُّ ايضاً إشعاعاً خفيفاً وراء كتاب مؤلَّف من الف صفحة ووراء قطعة خشب او صحيفة من معدن الالومينيوم سمكها ١٥ مليمتراً. فتحقَّق حينئذٍ انه وجد عاملاً جديداً غير معروف حتى ذلك الوقت ولذلك دعا تلك الاشعَّة بالاشعَّة المجهولة (rayons X) فاحبَّ رونتجن ان يدرس خواصّ هذه الاشعَّة فرأى:

١ً انَّ اختراق النور للاجسام الصلبة متوقّف ليس فقط على كثافة هذه الاجسام بل على ثقلها النوعي ايضاً

٢ً انَّ حرارة هذه الاشعَّة قليلة جدًّا

٣ً ان العين لا ترى هذه الاشعَّة لانها لا تؤثر في شبكيَّتها

٤ً وانَّ تلك الاشعَّة تنتشر على خطٍّ مستقيم دون التواء ولا انعكاس بخلاف الاشعَّة الماديَّة . وهي من خواصها العجيبة

٥ً انَّ اوَّل نقطة تقع عليها هذه الاشعَّة المجهولة انَّما هي الاسطوانة وانَّها كلَّما بعدت عن هذه النقطة خفَّت قوَّتها بالنسبة الى مربَّع المسافة

٦ً ان هذه الاشعة الجديدة تختلف عن الاشعَّة السلبيَّة المعروفة بالكاثوديَّة بجملة خواص اعظمها عدم تأثير المغاطيس فيها

٧ً ان بعض الاجسام تشعّ بفعل هذه الاشعَّة المجهولة

وهكذا درس فعلها الفوتوغرافي ورسم صور عدَّة اجسام عاينها بفعل تلك الاشعَّة فاخذ رسم عظام يدهِ وراء المرآة وصوَّر بعض قطع معدنيَّة داخل علبة خشبيَّة

هذا هو ابتداء ذاك الاكتشاف العجيب الذي لا تحدّ منافعهُ وبهِ يمكننا ان

نشخّص عدّة امراض ونعالج الامراض الزمنة . وطريقة التشخيص على نوعين: الاولى عياناً بالنظّارة الشمّة (miroir de platinocyanure de baryum) والثانية بالرسم على صحيفة من زجاج حسّاس . وطريقتها واحدة اي ان يوضع المريضُ بين الاسطوانة والمرآة او الزجاجة الحساسة

فيمكننا بالطريقة الاولى مثلاً ان نشرّح المريض تشريحاً حقيقياً دون ان نهرق ادنى نقطة من دمهِ . ودون ان نجرحهُ ونؤلمهُ البتّة نسبر غورَ جسمهِ وهو واقف امامنا غير عالم اننا نكشف اسرار باطنهِ فترى رئتيه او بالاحرى لا نراهما اذا كانتا بحالتها القانونيّة . اما اذا كانتا مصابتين بتدرُّن او مرض غيره فتظهر صورة ذلك المرض

نرى قلبهُ اذا كان متضخماً ام لا . نرى أبهرهُ (aorte) أهو متمدّد ام لا . نرى شغاف صدرهِ النصفي (médiastin) اذا كان فارغاً ام مبتلّى ببعض الاورام او الغدد المتضخمة . نرى العظام والمفاصل كلَّ عظم وكلَّ منفصل على حدةٍ . نرى المريء (oesophage) والمعدة والامعاء بعد ان ندخل فيها معجون البسموت . اذ ان البسموت كثيفٌ يحجز النور فيُظهر صورة الاجهزة التي دخلها . وان قيل انَّ البسموت سمٌّ فكيف نَصِفهُ ؟ اجبتُ اننا نجرّع المريض من ٥٠ الى ١٠٠ گرام من كربونات البسموت النقي وهذا ليس بسمٍّ على خلاف مزيج نترات البسموت السامّ وانما يُشترط في كربوناتهِ ان يكون ذا نقاوة كيماويّة

فمن الثابت اذن ان الاشعة تخدم الطب والطبيب خدمةً لا مثيل لها لكنها لا تأتي وحدها دائماً بالتشخيص الكافي كما ان السماعة او نقر العضو بالاصبع لا يكفي وحدهُ لاتمام تشخيص المرض . نعم في بعض الظروف يمكننا بواسطة الاشعة وحدها ان نتحقّق تشخيص الداء بدون ادنى مساعدة لكن يجب دائماً ان نتّخذ كلَّ ما في طاقتنا من الوسائل ونستخدم كل ما اوجده العلم الحديث من طرائق التنقيب لنثبت تشخيصنا بدون شك ولا تردُّد . لان الصورة التي نراها هي " اثرٌ صامت " يجب على العقل فهمهُ والمشخّص بفعل عقلهِ يفسّر الاثر وتفسيرهُ نتيجة القوة الحاكمة الطبية .

مثال ذلك : رجل يشكو المًا في صدرهِ فنجد مثلاً في المرآة الكهربائية خيالاً ثابتاً في أبهر القلب . فلا يمكننا والحالة هذه بدون ان نستعين بالعلامات الاعتياديّة

الكلينيكيَّة ان نؤكد على اي داء يدلُّ هـذا الخيال أعلى تمدُّد الشريان (anévrisme) او على ورمٍ حصل فيهِ او في غيرهِ من الاعضاء.

على أنَّنا نستطيع في حوادث اخرى ان نثبت وجود الداء او عدمهُ توًّا دون الاستعانة بالعلامات الطبيَّة بل يمكننا ان نصلح التشخيص الطبيَّ كما جرى لنا مع احد زملائنا الاطباء. الذي شعر مدَّة سنين طويلة بألم في ظهرهِ كان يسبّب لهُ البول الدموي وقد تفاقم عليهِ الداء حتى اضطرَّهُ الى استعمال المورفين بكميَّة وافرة. وكان استشار في مرضهِ أعلام الطبّ في بيروت فارتأى بعضهم بعد التشخيص انَّهُ مصاب بداء السرطان وقال غيرهم انهُ سلٌّ كلوي وصرَّحوا لهُ انَّهُ لا يعيش اكثر من شهر او شهرين. ولمَّا فاتت عليهِ هذه المدَّة وهو حيٌّ يُرزق ارسل اليهِ جناب الدكتور جلنغ واستدعاهُ الى بيروت لنفحصهُ باشعَّة رنتجن. ففعلنا واذا سبب دائهِ حصاةٌ كانت في المثانة. ففرح ايَّ فرح لمَّا اوقفناهُ على علَّة الداء ولم يلبث ان استخرج الحصاة فشفي بعد قليل وعاد الى عيشتهِ المنتظمة نابذًا لاستعمال المورفين

وكذلك امراض العظام ربَّما اوقفتنا عليها الاشعَّة وأسًا وبكلّ تدقيق دون سواها. والامثال على ذلك لا تُحصى. فمنها ما جرى لضابط نمساوي وقع عن ظهر فرسهِ فتورَّمت فخذهُ اليسرى ونُقل الى المستشفى واذ ظنُّوا انَّ عظم فخذهِ مكسور في اسفلهِ جعلوا لهُ جبارةً من الجفصين لكنَّ الاشعَّة الرنتجنيَّة ازالت هذا الوهم وبيَّنت للجرَّاح والمريض خطأهما فاخذ منهما الاندهال لمَّا رأيا صورة كسر الفخذ عموديًا عند مفصل الورك

ومنها ما حدث قبل شهرين لاحد الذوات الخواجا ن. ب فانَّ العربة انقلبت بهِ وكُسرت فخذهُ. فاسرع الاطبَّاء الى جبرها بالجفصين لظنّهم انَّ الكسر في وسط الفخذ. لكنَّ احدهم زيادةً في تطمين بال المريض اراد ان يتحقَّق صحَّة هذا الحكم الطبيّ فجاء بهِ الى مستوصفنا حيث صوَّرنا فخذهُ ووركهُ رغمًا عمَّا ركَّبوا عليها من قناطير الجفصين. فكانت نتيجة التصوير انَّ تلك كميَّات الجصّ لا تجدي فتيلًا وانَّ الكسر قريب من المفصل الوركيّ فعُولج المريض بالجذب المتواصل وتعافى سريعًا

ولو اردنا لأتينا بحوادث متعدِّدة يستغرق سردُها زمنًا طويلًا والقرَّاء في غنًى عنها. وكذلك اضرب صفحًا عن الاجسام المعدنيَّة النافذة في الجسم كالابَر والرصاص

فانَّ رسمها أمن اسهل الامور بعد ان كان ذلك يُعَدُّ من المشاكل الصعبة . وكلُّنا نعلم كم يصعب على الجرَّاح تحديد موضع ابرة ولجت في اللحم . وكذلك الرصاص فأنهُ اذا اصابَ عضواً غاص في اقاصي الجسم حيث لا يمكن تعريف مكانهِ . فربما يدخل الرصاص من الكتف او اليد او احد الجانبين فيستقرّ في السلسلة الفقاريَّة . وكم من مرَّة ولجت الرصاصة في قناة العظم نفسها . ولولا الاشعَّة لبقي الجرَّاحون اشهراً دون اكتشافها وذاق المرضى الاوجاع المبرّحة بسببها

هذا ما يختصّ بتشخيص الامراض وما قولنا بعلاجها فانَّ الاشعَّة المجهولة لها في ذلك حصَّة صالحة لا يسعني اطالة الكلام فيها وانَّما اقول اجمالًا انَّ هذه الاشعَّة تقوى على علاج القروح التي يعجز الاطبَّاء والجرَّاحون عن مداواتها كالآكلة (lupus) والسرطان الجلديّ (epithélioma) وقد وفّقنا الله الى شفاء جملة آفات منها مزمنة بعد استعمال غيرنا للمراهم والكيّ بالنار والحروق الكيماويَّة

ومن الادواء التي تحسمها الاشعَّة الدرَن الليمفاويّ الصغير الحجم الذي يحدث بوفرة تحت العنق وحول الرقبة (polymicroadénite tuberculeuse) . وكذلك قد ثبت بالتجربة انَّ اشعَّتنا هي انجع دواء للداء المعروف بابيضاض الدم (leucémie) وقد عالجنا بها مريضين فتحسَّنت حالها لكنهما لم يشفيا تماماً لعدم ثباتهما على العلاج ولا نعلم ماذا حلّ بها

قرأنا في بعض المجلّات العلميَّة انَّ الاورام السيّئة من السرطان العظمي الدموي (ostéosarcome) ومن السرطان الليمفاوي الدموي (lymphosarcome) تزول بفعل رنتجن . على أنَّا لم نجرّب هذا العلاج حتى الآن امَّا لعدم ثقة المرضى به وامَّا لجهل الاطبَّاء بنفعهِ

ولا احد ينكر منفعة اشعَّتنا لتخفيد الحكاك المزمن والبثور والنَّمَط الجلديّ (الاكزما) . ولا ازيدكم علماً اذا ذكرتُ فعلها بالاجهزة التناسليَّة من ذكور وإناث على انَّ استعمالها لا يجوز الَّا على شروط مقرَّرة وقد ضربت الحكومة على ايدي اولئك الاطبَّاء الذين لا ذمَّة لهم فيتَّخذون لضرر المجتمع الانسانيّ ولسدّ الينابيع النسليَّة طرائق العلاج التي اوجدها الخالق في الطبيعة . ولا بأس من استعمالها لعلاج النساء

العقيمات المصابات بالورم الليفي (fibrome) ونزيف الرحم الناتج عنه (métrorragie) وقد جرَّبناه في حادثتين فجاءت النتيجة وفق المرام

ولا شكّ انهُ بلغكم فعل هذه الاشعَّة لازالة الشعر . وفائدتهُ مؤكدة في نزع شعر الرأس اذا بُلي الانسان بالقرع وقد اختبرنا حسن فعلهِ في كثير من المرضى . امَّا استعمالهُ لازالة شعر الوجه فلا يخلو من خطر فانَّ بشرة الوجه بعد سقوط شعرها تحمرّ وتضخم عروقها الرفيعة فيصبح المنظر قبيحاً . والمفضَّل في نزع شعر الوجه او هُدب العين اتخاذ المجرى الكهربائي الكلفاني بواسطة ابرة البلاتين التي تأتي بالمرغوب دون أذى البتَّة

هذه بعض فوائد اشعَّة رنتجن سوَّلها الله لخدمة الطبّ والجراحة . ذكرناها بالاختصار ومن المقرَّر ان العلماء لا يزالون كلّ يوم يكتشفون منافع جديدة تنجم عنها . وفقهم الله الى ما فيهِ صلاح الانسان وعلاج اسقامهِ ليقوم هو ايضاً بخدمتهِ تعالى اذا حصل على تمام العافية بمنّهِ وكرمهِ

تمثال جديد معدنيّ

لجوبتير (المشتري) البعلبكي

نظر اثريّ للاب سبستيان رونزفال اليسوعي

التمثال الذي رسمنا منهُ هنا صورتين هو من معدن البرنز اي مزيج النحاس والقصدير وقد وُجد منذ عهد قريب في بعض جهات لبنان أبى المكتشف ان يدلّ عليها . وهو بلا شكّ اعظم واجمل تمثال يُعرف من هذا الشكل الى يومنا ولذلك قد تفرَّغنا لدرس مميّزاتهِ وها نحن نهدي قرَّاء المشرق خلاصة بحثنا ليقفوا على خواص هذا الاثر الذي ابتاعهُ اليوم احد اهل باريس وادخلهُ في جملة طُرف متحفهِ

قد مرَّت لنا في المشرق نبذة وصفنا فيها صورة ناتئة من هذا المعبود البعلبكيّ وجدت في قرية السخنة على مسافة مرحلة من تدمر (راجع المشرق ١١ : ٣٠٧–٣٠٩) وهي منحوتة في صخر كلسيّ . وقد رسمنا تلك الصورة وشرحنا الكتابة اللاتينيَّة التي في لحفها . والتمثال الذي نحن في صددهِ الآن شبيهٌ بتلك الصورة الا

في بعض الخواص التي تستحق الذكر . فنصفهُ وصفاً مختصراً لانَّ الصورتين اللتين يراهما القارئ تنوبان عن الوصف الطويل وفي نيَّتنا ان نعود الى هذا البحث في مقالة نفردها لذلك في مجموع مكتبنا الشرقي

تمثالنا كما ترى ليس سالماً بل هو محطَّم فالرأس منفصل عن عنقهِ ومصاب بشدخ من عن يمينهِ شوَّه شعره . وقد فُقد القسم الاسفل من جسم الشخص . وكذلك تلفت الذراع اليمنى وكانت يدها تُلهب بالسَّوط اما الذراع اليسرى فسالمة وكانت قابضة على طاقة من السنبل وهي الآن قد اعوجَّت نحو صدر الشخص وسحجت رأس احد الاشلاء المصوَّرة

وكان على جانبي التمثال عجلان الواحد عن شمالهِ لا يُرى في الصورة ولم يبق منهُ سوى رأسهِ وقسم من كاهلهِ . اما الآخر فكان عن يمينهِ ولم يتلف منهُ سوى رجلهِ اليمنى . وقد عمدنا الى القطع المحطَّمة الباقية فجبرناها على قدر الامكان ثمَّ جعلنا تمثال الاله على قائمة صناعيَّة من الشمع الابيض ثمَّ نصبنا احد العجلين على يمينهِ واخيراً ركزنا هذا التمثال على قاعدتهِ المعدنيَّة . وهذه القاعدة قديمة صحيحة مجيَّزة بتقيَّين في كل جوانبها ولعلَّها اخطر واهمّ ما يستوقف النظر في اثرنا كما سترى

وان اعتبرت صورة المشتري في هيئتهِ الكاملة ولاحظت دقائق جهتيهِ من الامام والوراء تبيَّن لك انَّ الاله كمألوف عادتهِ في مقتبل العمر غير ملتحٍ . وكذلك لمَّتهُ غزيرة على ما هو معروف . وفوق رأسهِ سلَّة واسعة تُدعى كلاثوس (calathos) مزدانة بالسُّنبل وبتراصيع تمثّل الحجارة الكريمة التي كان الاله البعلبكي محلًّى بها . وفي اعلى السلَّة يُرى قرص الشمس تلتصق به حيَّتان مشتبكتان ومثلهما على ظهر التمثال بزيادة جناحين والسلَّة المذكورة هي كالدنّية وان شئت قُل كقلنسوة كهنة الروم

ورداء الاله معلَّق بحمالتين كما هي العادة ورسمت عليه مصاريع . وبين الحمالتين يلوح ايضاً القرص المجنَّح وهو كالقرصين السابق ذكرهما على مثال القرص الأشوري الشبيه بصليب متفلّط الزوايا وفيهِ شاهد حيّ على ثبات الشرقيين في رسم تصاويرهم ورموزهم القديمة حتى طور التاريخ الروماني

قلنا انَّ رداء الاله ذو تقاطيع والباقي منها ستّة في كلّ قطعة صور نصفيَّة

تمثل الهة وثنيّة غير انَّ هذه التصاوير ليست واضحة وقد طُمست نوعاً بفعل الزمان والذلك يصعب تعريفها بتدقيق . ودونك رأينا في ذلك مبنيًّا على المقابلة بين هذا التمثال وبقيّة تماثيل جوبيتر البعلبكي المدنيّة المعروفة . فالصف الاوَّل يمثّل اله الشمس (Hélios) والهة (كذا) القمر (Séléné) . ويمثّل الصف الثاني الهة الحرب (Athéna) على رأسها الخوذة ثم الاله هرمس او عطارد (Hermès) مع العصاة الملتفّ حولها حيّتان (caducée) . وترى في الصف الاسفل المشتري (Zeus) والالهة هيرا (Héra) . ولا شكّ في صحّة صورتي الصف الاوسط امَّا بقيّة التصاوير فليس مشكّلٌ فيها اللهم الّا صورتي الصف الاخير . وعلى كلّ حال ليس تحت ذلك كبير امر لانَّ قدماء النقَّاشين كانوا يتفنّنون في نقش رداء الاله . ولعلّك تسأل أما كان تحت الصف الاسفل صفٌّ آخر ذو صور الهيّة غيرها ؟ كلّا لا نظنّ لانَّ المدن كانت سعتهُ اضيق من ان تكفي لرسم صور اخرى . ويؤيد ذلك انَّ الوجه الخلفي لا يزيد صغرهُ صورهُ على الثلاثة وتحتها نقوش بسيطة وورديَّة فقط (rosaces)

فلنمضِ الآن الى التمثال . ترى اوّلًا بين الحائتين القرص المجنّح مع الحيّتين المتدلّيتين على جانبيه كأنَّ المصوّر اراد ان يجمع في شعار واحد ما كان مفرّقًا في الوجه الامامي بين سأة الرأس والصدر . ولا بأس لانَّ هذا الشعار قد تكرَّر رسمهُ على هذا الشكل في مصر وفي انحاء آسية اعني القرص الشمسي والاجنحة والحيّتين . وتحت الشعار ترصيع واحد على مدى خانتين فيه صورة عُقاب ناشر جناحيهِ وساقاهُ متباعدتان امَّا مخلباهُ فلا يحجبان على الصاعقة كما يُعرف من بقيّة تصاوير هذا الاله . ومعلوم انَّ النسر كان رمز جوبيتر . والصفّ الثاني يمثّل رأسي الكباش الاله عمّون على شبه بقيّة التماثيل المدنيّة . امَّا الصفّ الاسفل فترى فيه نقشين يشمل كلّ واحد منهما صاعقتين متشابكتين . وصورة الصاعقة ترى ايضًا على جانبي الاله لكنّها قليلة الوضوح في صورتنا الشمسيّة

وكان العجلان واقفين على جهتي تمثال الاله كما هو مقرَّر من عدّة تصاوير قديمة وكانت وجوهها غالبًا مائلة نحو الاله . وقد جعلها النقَّاش صغيرين بازاء عظمة الاله . قلتُ عجلين لا ثورين لأنّها في فتاء السنّ وقرونهما في اوّل طلوعها دون الدلالة على خصائها

بقي علينا ذكر القاعدة التي عليها التمثال وقلنا انها اهمّ ما يستدعي النظر في هذا الاثر لانهُ اوّل تمثال معدني من الشتري البعلبكي وُجدت قاعدته . والقاعدة سالة لحسن الطالع وعلى كل وجه من وجوهها الاربعة يُرى ثقبان دلالةً على انَّ هذا التمثال كان معدًّا لتُجعل فيهِ عارضتان فيُحمل في الحفلات الدينيّة على اكتاف حاملَين سابق فلاحق او متكاتفين كما كانوا يفعلون في بعلبك في الاعياد والمواسم على ما اخبر بهِ قدماء الكتبة

ثمَّ انهُ يوجد فوق القاعدة امام جوبتير ثقب مستدير كانوا يركزون فيهِ امَّا مجمرةً للبخور (thymiatérion) واماَّ اناء يسكبون فيهِ خمرًا لاكرام الاله . وكل ذلك مفقود

وكان التمثال باجمعهِ مع قاعدتهِ وعجليهِ مموَّهاً بالذهب كما تدلّ عليهِ عدّة آثار ظاهرة في اقسامهِ . وكفى بذلك دليلًا على جمال هذا الاثر المعدني البديع الذي يفوق بحجمهِ الآثار السابقة اذ يبلغ طولهُ مع قاعدتهِ بعد اصلاحنا لهُ ٣٥٢ ملمترًا . وكان مجوَّفًا . وهو محكم الصنع ونقوشهُ غاية في الحسن منقورة بدقّة

واذا عارضناهُ بالتماثيل المعروفة الى يومنا هذا وجدناهُ مختلفًا عنها بعض الاختلاف . واقرب تمثال بالشبهة اليهِ هو تمثال معدني مصون في مجموعة المسيو دي كلارك (M' de Clercq) في باريس والشبه بينهما في الثوب فقط وزينتهِ الامامية والخلفيّة . ومن اراد الاطّلاع عليهِ فلينظر صورتهُ في كتاب المسيو دي ردِّر (M. de Ridder) الذي عنوانهُ (Collection de Clercq, *Catalogue*, t. III, pl. 35) ثمَّ في مقالة للمؤلف عينهِ عنوانها (Bronzes syriens) نشرها في المجموعة (Monuments et Mémoires, fondation Piot, t. XII) ففي هذين التأليفين كما في تأليف المسيو دوسُّو (Notes de Mythologie syrienne) يجد الاثريون وصف كلّ ما يُعرف عن جوبتير البعلبكي من آثار حجريَّة ثابتة او منقورة ومعدنيّات الخ . فيتضح من ذلك انَّ تمثالنا افضل اثر واقرب شبهاً على الرجح بالمعبود الذي كان يُكرم في هيكل بعلبك في القرن الثالث للمسيح

بيروت في ٢٥ ايار سنة ١٩١٣

الشاهد العيان على احوال البلقان

رحلة الاب لويس رنزفال اليسوعي الى ادرنة

كان نظر العالم باجمعهِ متّجهاً نحو ادرنة مذ سار اليها البلغار فحاصروها واخذوا بخناقها · وكان همّنا اعظم من سوانا اذ قدّر الله بوجود اعزّ اهلنا واقاربنا في تلك المدينة فانقطعت عنّا اخبارهم زمناً طويلاً ونحن نتقلّب على جمرات النار لما يتهدّدهم هناك من الاخطار ليلاً مع نهار · فما وردت الانباء بفتح ادرنة في اواخر آذار حتى تلطّف رؤساؤنا وفوّضوا الينا افتقاد المنكوبين لعلّنا نخفّف عنهم اعباء تلك المحنة · نعم انّ اخبار البرق كانت صرّحت بانّ المستعمرة الاوربيّة في ادرنة سالمة كلّها فطمّنتنا نوعاً لكنّنا كنّا نودّ ان نتحقّق الامر عياناً · وسترى انّ انشغال بالنا لم يكن مجرّد وهم وانّ اولئك الاحباب ما كانوا لينجوا من اهوال الحرب لولا نعمة خاصّة من المولى الذي نشكرهُ على صفحات هذه المجلّة شكراً مستفيضاً كما هو اهلهُ

اقلعنا من بيروت في ٤ نيسان راكبين الباخرة الخديويّة وفي حسابنا انّنا نعود اليها بعد اربعة اسابيع اذ كنّا نظنّ انّ الوصول الى ادرنة سهل وانّ الطريق اليها مطروقة من بحر سفيد او الارخبيل فننزل الى ده ده اغاج او الى بورغاس فتقلنا منها السكّة الحديديّة الى ادرنة · لكن عقبات كثيرة اعترضتنا فحالت دون مرامنا

واوّل ما عاقنا في تحقيق امنيّتنا انّنا لم نجد في ازمير مركباً يُبحر الى ده ده اغاج فقضي علينا بان نسير الى الاستانة · ولعلّ الامر كان لطفاً من الله لأنّ البلغار ما كانوا يرخصون لاحد بالنزول الى ده ده اغاج الّا بجواز خاص من وزير الحربيّة فكان اضحى سفرنا سدًى

فابحرنا الى الاستانة وكان البحر في هياج عظيم منذ خروجنا من رودس فلم يهدأ بعد استئناف مسيرنا من ازمير حتى بلغنا جزيرة متيلين (مدلّي) فلمّا قربنا من تنيدوس سكنت الريح وانقشعت الغيوم فصفا اديم الجوّ وخمد البحر فقربنا من مضيق الدردنيل وابصارنا حيثما تقع تقرّ لمشاهد الطبيعة الفتّانة فكنّا نشخص الى جزيرة لمنوس غرباً والى امبروس وشبه جزيرة الدردنيل البديعة شمالاً وشمالاً شرقاً

والى سواحل آسيــة وآثار طروادة شرقاً واخيراً الى تنيدوس والجزائر الصغرى القريبة منها جنوباً . وكانت شمس الربيع تكسو هـذه المناظر حلّة من النور فترسل اليها اشعّتها الذهبيّة في ضحى النهار فلا يشبع النظر من رؤية محاسنها فكان الرّكاب صوتاً واحداً : لله ما اجمل هذه المشاهد

وممّا زاد هذا المنظر بهجةً ما لقيناهُ هناك من مراكب اليونان الحربيّة فكان اسطولهم متفرّقاً تلوح سفنهُ في أهبتهـا الحربيّة من دوارع ونسّافات وكانت سفن أخرى نقّالة تسير ذهاباً واياباً فتُقدم حيناً وتتوارى حيناً آخر . فقال بعض رفقتنا : لو امكننا ان نحضر واقعةً حربيّة لزاد بهـا تأثّرنا ورأينا ما يتمنّى كثيرون ان يروه

وما قالوا ذلك حتى عرجت بنا الباخرة الى قرب مدخل الدردنيل واذا بنسّافتين تركيّتين تسيران بسُرعة تحت حماية بطاريّات الحصون . وكنّا نظن انهما لا تجسران ان تخرجا من المضيق لمحاربة اسطول اليونان . وما اشدّ ما كان اندهاشنا اذ رأيناهما متّجهتين بجرأة الى الامام فرأتا قريباً من باخرتنا ثمّ خرجتا من المأزق وومتا بقنابلها النسّافات اليونانيّة . فعاملهـا اليونان بالمثل والتحم القتال بعد قليل بين عموم السفن. لكنّ اليونان خوفاً من بطاريّات المعاقل اخذوا حذرهم وتباعدوا فدوارعهم ارست حيث لم تُصب بمدافع الاتراك البرّيّة امّا السُّفن الصغـيرة فتوارت بين تينيدوس وجزيرة هناك شماليّة حيث جمع اليونان على ما يقال ذخائرهم الحربيّة . ومن المحتمل انّ النسّافتين التركيّتين قصدتا ذاك المخزن (الجبخانة) لتفجراهُ فسار اليونان للدفاع عنهُ . وما تحقّقناهُ ان الاتراك بعد ثُلث ساعة دحروا اليونان تماماً . وكنّا نرى العدد الجمّ من جنود الدولة واقفين عند الحصون يرصدون حركات المتقاتلين وهم مستعدّون لاطلاق مدافعهم على الاعداء

وما عدلت الباخرة بنا قليلاً عن الارخبيل حتى رأينا الطرّاد « مجيديّة » الشبيه بحميديّة يمخر البحر لاحقاً بالنسّافتين . ثمّ ارسينا بإزاء مدينة الدردنيل فشاع هنالك الخبر انّ البارجة اليونانيّة أڤروف (Avéroff) لرتطمت في نواحي امبروس وان الاسطول العثماني خارج ليحاول القبض عليها او يحرقها . لكنّ الخبر لم يتأكّد

وفي اثناء مرورنا في مضيق الدردنيل كنّا نسرّح الابصار في التحصينات القويّة التي عزّزت بها الدولة ضفّتي المضيق لا سيما الضفّة الاوربيّة بعد مفاجأة البوارج

الطليانيَّة لذاك المعبر واقامت هناك مرايا كهربائيَّة على مسافات قريبة لكشف سفن العدوّ وكذلك نصبت على جانبي المضيق عدَّة مدافع حجبتها في قُتَر هذا ما عدا المدافع ذات العيار الكبير المجهَّزة في الحصون

ثم خرجنا من مضيق الدردنيل فلنا قليلًا واذا بالاسطول التركيّ في تمام اهبته الحربيَّة ومراجلهُ تغلي متحفِّزًا للسير عند اول اشارة . فرأينا بوارجهُ وقواطعهُ كطرغود رئيس وبربروس ومسعوديَّة مع المدفعيات والنسَّافات والماكسة للنسَّافات . ثمَّ اقتربنا من غاليبولي فعاينَّا من عن ظهر السفينة آثار الزلزال الاخير الذي دُهمت به في شهر آب المنصرم حيث خربت المآذن وتقوَّضت المساكن وتداعت جدران الابنية وكنَّا نشاهد حركات الجنود المستعدَّة لمحاربة البلغار واليونان . امَّا القرى المحيطة بغاليبولي في شمالها الشرقي من جهة بولير وشاركوي فكانت تلوح لنا عن بُعد بيضاء ناصعة في وسط الخضرة فنتعجب من حسنها . واذ نظرنا اليها بالنظَّارة المجهرة بانت لنا حقيقتها فاذا هي مضارب للجند احتلُّوها في مدَّة الحرب . وقد أكد لنا ضبَّاط المركب انَّ هناك بين ٤٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ جنديّ مستعدِّين لمناجزة العدوّ القتال . وذكر اولئك الضبَّاط ما جرى لباخرتنا « توفيقية » قبل شهر ونصف اذ تكاثف عليها الضباب فارتطمت . واضطرّ الرئيس الى ان يفرغ قسمًا من شحنها فيتركهُ الى البرّ وكان البلغار يرقبون حركات السفينة فظنُّوا انها تُفرغ موادّ حربيَّة ممنوعة واخذوا يطلقون عليها قذائفهم وقد ارونا آثار رصاصهم في ظهر المركب . فللحال امر الرئيس بنشر راية بيضاء وكفّ البلغار عن الضرب ثمَّ قدم منهم مفتشان ليتبيَّنا الامر فاوفد الرئيس معهما نائبهُ الى العمدة البلغاريَّة فازال كلّ شبهة بشرح الحال كما روتهُ الجرائد وقد حدث مثل ذلك لمركب الفرنساوي سوزت فراسينه (Suzette-Fraissinet) ولمركب آخر ممَّا يشهد على ان البلغار لا يُراعون احدًا في سبيل مصالحهم ولا يصبرون على الغضّ من حقوقهم

وصلنا الى الاستانة في ١٢ نيسان وما لبثتُ ان اجتمعتُ برجال السفارة الفرنسويَّة فطلبتُ جوازًا يمكّنني من السفر الى ادرنه . فتلطَّف المسيو بوب كاتب اسرار السفارة فارسل في اليوم عينهِ نبأً برقيًا الى معتمد الدولة الفرنسويَّة في صوفيا لينال لي الرخصة اللازمة من الوزارة البلغاريَّة لادخل ادرنة . فانتظرتُ الجواب اسبوعًا بل اسبوعين

حتى خاب الامل من نوال الجواز المطلوب . فاخذت كلّ المعلومات عن سفر البواخر وواجهت المسيو پوپوف الملازم الحربي البلغاري في سفارة روسيّة فتحقّقت انهُ ليس طريق اخرى الى ادرنة غير طريق قارنه كل اسبوعين او طريق رومانية من قسطنجه وبخارست وجورجيفو ثمّ قَطع نهر الدانوب الى روستشوك. فاخترتُ هذه الاخيرة مع مشاقها توفيرًا للوقت

وانتهزتُ فرصة اقامتي في الاستانة لازور الاقارب والمعارف . وقد اذهلني ما لحظتُ من هدوّ الحاضرة وسكينة اهلها والجيوش قائمة على ساق الحرب عند ابوليا اذ كانت لا تزال عساكر الدولة والحلفاء تحت السلاح على مسافة ٣٥ او ٤٠ كيلومترًا فقط من الاستانة وعددهم لا يقلّ عن ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل . وكنّا نرى الاسطول الدوليّ مزيّنًا لترعة البسفور ومن جملة سفنهِ الحربيّة الطرّاد « هنري كاتر » الذي اقام مدّة في مرسى بيروت

وممّا شاهدناهُ بل الاسف قصر جيراغان الذي التهمتهُ النيران بعد ان اتّخذهُ المبعوثان كنتدى جلساتهم السياسيّة . لكنّنا وجدنا في متنزه يلدزكشك ما سرّى كلّ همومنا واشرح صدرنا بما جمعهُ الطبيعة هناك من المحاسن الفتّانة وكان الربيع زاد هذا المكان بهاء وجمالًا فبسط فيهِ خمائلهُ الخضراء ومدّ عليهِ اشجارهُ الفنواء ورقش زهورهُ الزهيّة العطرة مع ما يكشف النظر من مباني العاصمة وقصورها وجوامعها ومناورها في جانبي آسية واوربّة معًا . فكنت تائهًا ثملًا بمشاهدة تلك البدائع كأني انتقلتُ الى عالم آخر أنساني الوجدان

وقد زرت فيما زرتهُ جامع ايوب من اجمل الآثار البنائيّة الاسلاميّة وجامع القهريّة الذي كان قديمًا كنيسة بوزنطيّة مزدانًا بتصاوير عجيبة من الفسيفساء أزالوا عنها اللاط الذي كان يحجبها ويشوّهها لمّا زار جلالة ملك الالمانية السلطان عبد الحميد

*

ركبنا باخرةً رومانيّة يوم السبت ٢٦ نيسان في عصر النهار مبحرين الى قسطنجه فمددنا الى نظر ضفاف البوسفور الذي قطعناهُ طولًا من الجنوب الى الشمال فكانت ابصار الركّاب لا تشبع من معاينة تلك المناظر الآخذة بمجامع الفؤاد الساحرة لعيون الناظرين . وما كنّا نسلّ من تلك المشاهد لولا انّ الريح التي رافقتنا عند

خروجنا من الاستانة اخذت تشتدّ واضحت عاصفةً لّما بلغنا مضيق البوسفور الشماليّ حيث عاينّا الاستحكامات والتحصينات التي عُزّز بها ذلك المعبر كما فعلوا في مضيق الدردنيل

وهناك يبتدئ البحر الاسود الشهير بانوائهِ المشؤومة فلاحت لنا شمالاً عن بعد بين الغيوم المتكاثفة قرية دركوس التي يشرب اهل الاستانة من مياهها المجلوبة بالقنيّ · وكان البلغار قد حوّلوا مجراها عن المدينة قبل الهدنة. وكذلك لم نميّز تمييزًا واضحاً مدينة ميديا التي تعيّنت كتخم بلاد البلغار الشماليّ الفاصل بينها وبين تركيّة

في صباح اليوم التالي القت باخرتنا مرساها في قسطنجه وهي مدينة مستجدّة البنيان زاهية العمران على طرز المدن الحديثة وموقعها في مقام مدينة قديمة للرومان اسمها قنسطنطينيانة · وهي كلّها فوق صخور تعلو قليلاً عن سطح البحر وتشبه بأبنيتها وهندسة شوارعها ولباب رفاهيّتها اجمل المدن الاوربيّة. ورأينا هناك كنيساً لليهود محكم الهندام خبّاءهُ كنيسةً وكذلك مررنا بجامع للمسلمين مشيّد على الطرز الروماني البوزنطي على مثال كنيسة فُرڤيار في ليون · ومركز المدينة على مسافة كيلومترين من البحر تتواصل بينها وبينهُ ابنيةٌ الخاصّة. وعلى جوار البحر حمّامات يتقاطر اليها المستحمّون في فصل الصيف. وكذلك يصطافون في كلّ سواحل البحر الاسود الغربيّة ومدنها كفارنه وبورغاس فانها مواقع بهجة طيّبة الهواء كثيرة الخيرات ومرافق الحياة تلطّف حرارةً صيفها الريحُ الشماليّةُ التي تهبُّ في معظم نهارها

كان موعد سفر القطار السيّار (الاكسبرس) الساعة السادسة فركبناهُ متّجهين الى بخارست فقطعنا مستنقعات دوبروجا المتكوّنة من مياه نهر الداتوب وامتداد المياه البحريّة · وسيلستري في جنوبيّ تلك المستنقعات التي كان يحوم فوقها او يسبح في مياهها الوف من ضروب الطيور البرّيّة كالبطّ والوزّ والكركيّ والغوّاص والبلشان. وبعد ساعة سرنا على مقربة من مدينة «طومي» الشهيرة بمنفى الشاعر اوڤيديوس ثمّ جاوزنا مدّةً السدّ المنسوب الى القيصر طرايان حتى قطعناهُ فوصلنا الى تشرناڤودا الواقعة عند موصل شعبتَين من نهر الداتوب البالغ عرضُ مسيلهما ستّة عشر كيلومتراً مع ما يتوسّطهما من المستنقعات

فلقطع هذه البحيرة قد شيّد المهندس الفرنساوي ساليني (Saligny) من السنة ١٨٩٠ الى ١٨٩٥ جسرًا نوعيًا يُعدّ من اعظم وأحكم الجسور المزوقة في العصور. وهذا المشروع يُقسم الى ثلثة اقسام: الاوّل هو عبارة عن جسر يرتفع فوق الشعبة الكبرى من نهر الدانوب على علوّ ٣٨ مترًا بحيث تستطيع اكبر السفن الشراعية المرور تحته وهو يتألف من قناطر متعددة تبلغ سعة الواحدة منها ١٩٠ مترًا ثم اربع ١٤٠ مترًا ثمّ ١٥ قنطرة في سعة ٦١ مترًا وهذه القناطر راكزة فوق اساس متين عمقه ٣١ مترًا. والقسم الثاني عبارة عن طريق مرتفعة (chaussée) فوق المستنقعات طولها ١٣ كيلومترًا مجهَّزة بحواجز في عدد ٣٤ حاجزًا لحبس المياه وإطلاقها. والقسم الاخير جسر ثانٍ على شعبة الدانوب الغربيّة يتركّب من ثلث قناطر سعة كلّ قنطرة ١٤٠ مترًا واحدى عشرة ترعة عرض الواحدة ٥٠ مترًا

فبينا كنا نقطع هذه المعابر ونعاين المياه المحدقة بنا مع العوارض الحديديّة التي تمرّ في وسطها كنّا نشعر بحرج مقامنا فيستولي علينا شبه الاقشعرار والجزع على انّا كنّا نرى ايضًا فوق المياه الزرقاء مدفعيّاتٍ لحكومة رومانية كانوا زانوها بالرايات اكرامًا لعيد الفصح الواقع في ذلك اليوم على الحساب الشرقي فيروقنا نظرها

وبعد ان اجتزنا تلك المعابر بلغنا فِتِشتي ثمّ سرنا الى بخارست في وسط سهول وروابٍ قليلة الارتفاع كلها خضراء بما ينبو فيها من الغلّات الوافرة التي تجعل رومانية احد اهراء اوربة. وكنّا نميّز بين الخضرة قرى يسكنها الغجر (Tzi-ganes) وهم كثيرون بلادنا. وهناك ايضًا جواسق لبعض ارباب الثروة

أُحلّنا القطار في بخارست في ظهر النهار فلم يمهلنا الا ساعة لزيارة المدينة. هذه عاصمة رومانية تمتدّ في بطيحة واسعة كثيرة الخصب وعدد سكّانها لا يقلّ عن ٣٠٠.٠٠٠ نفس فيها الشوارع المتقنة والساحات الفسيحة والاسواق الرائجة والابنية الشاهقة تجارى اهلُها في هندامها الحواضر الاوربيّة لا سيما في نصف القرن الاخير. قيل انّ بانيها راعٍ اسمهُ بوقور فنُسبت اليهِ المدينة ودُعيت بقرش (Bucuresci). وكان اوّل ورود ذكرها في آثار القرن الرابع عشر وقد فتحها سنان باشا سنة ١٥٩٥ ثم نزعها من ايدي الاتراك الامير الوطني ميخائيل ثمّ تناوبت في ملكها الدول حتى صارت اخيرًا سنة ١٦٨١ عاصمة الفلاخ والافلاق

ثمّ عدنا الى القطار فسرنا نحو الجنوب متوجّهين الى جورجيفو (Giurgevo) وهي مدينة وسطى على ضفّة الدانوب يرتقي عهدها الى القرن الرابع عشر ابتناها احد الجنوّيين اسمهُ سان تسرتزو (San Zorzo) او جيورجيو وزحف اليها الاتراك غير مرّة وملكوها. وفي معهدة ادرنة سنة ١٨٢٩ أُعيدت الى الفلاخ. وجورجيفو اخر تخوم رومانية الجنوبيّة وبازائها روستشوك البلغاريّة يفصلهما نهر الدانوب الذي يخصب المدينتين اي خصب

فقطعنا النهر في ٢٠ دقيقة ووطئنا ارض البلغار . وغنيٌّ عن القول انّ السأل لم يدعونا نخالط اهل مدينتهم الّا بعد التفتيش النظاميّ وفحص التذاكر المدقّق لا سيّما الذين اتوا مثلي من الولايات التركيّة . لكنّ الديوان رأى جوازنا قانونيًّا وبعد ساعة دخلنا دير الرهبان الآلاميين الذين يخدمون في روستشوك الرعيّة الكاثوليكيّة ولهم كنيسة كاتدرائيّة من الطرز القوطيّ المحكم البناء. ويديرون مدارس يعلّم فيها الاخوة المارست النمسويّون فرحّب بنا الرهبان وسرّوا باستقبالنا و كان اسقفّ المدينة غائبًا وهو فرنسويّ الاصل السيّد دولسه (Mgr Doulcet) لكنّهُ طاعن في السنّ منتهك القوى وقد شاع انّ رومية عيّنت لهُ خلفًا

روستشوك والبلغار يدعونها روسّه (Russé) مدينة متوسّطة الكبر موقعها عند مصبّ نهر لوم (Lom) في الدانوب . واهلها ٣٩,٠٠٠ منهم ٩٠٠٠ مسلم عائشون في الوفاق والوئام مع البلغار ولهم ٢٨ جامعًا او مسجدًا. وروستشوك قديمة العهد ومن المدن المحصّنة كان الرومان يدعونها پرستا. وفي سنة ١٨١٠ فتحها الروس ثمّ عاد الاتراك الى ملكها سنة ١٨٧٧ وحشدوا فيها جنودهم الّا انّ الروس رموها بقنابلهم من جورجيفو فبرحها الاتراك وصارت في حوزة الروس ثم ملكها البلغار

*

وفي صباح اليوم التالي اي الاثنين أقلّنا القطار صباحًا متّجهًا الى صوفيا فقطعنا نحو ثلثي بلغارية طولًا من الشمال الشرقيّ الى الجنوب الغربيّ وذلك مدّة ثماني عشرة ساعة دون انقطاع كالسفر من بيروت الى حلب . ومع طول هذا السفر ومشاقّه لم يأخذنا الملل لما كنّا نشاهد من احوال البلاد واخلاق اهلها البلغار

والحقّ يقال انّ بلغارية طيّبة التربة كثيرة الخصب. ولها الجبال الشاهقة والمناظر

البهجة التي ذكّرتنا بجبال وسهول فرنسة وانكلترة. وكنّا نظنّ انّ الحرب الحاليّة اضرّت بالزروع لاشتغال الفلّاحين في ساحة الوغى لكنّ البلغار من عنصر قويّ ذوي همّة عظيمة فقام الشيوخ والاولاد والنساء باعمال الفلاحة في غيبة الرجال. ولا غرو انّ شعباً كهذا يصيب مستقبلاً حسناً

وكنّا نشاهد بارتياح هؤلاء البلغاريين ونقرأ على سحنتهم آيات النشاط والاقدام فلا عجب ان كانوا لا يهابون الكدّ وتضحية النفس في سبيل الوطن. وكان اكثرهم لابسين ملابس العيد البهيّة الالوان المختلفة الازياء وكانت نساؤهم وبناتهم حلّين آذانهنّ بطاق من الزهور او غصن من الاكاسيا المزهرة

واخذ قطارنا عند خروجه من روستشوك يصعد شيئاً فشيئاً الى المشارف المطلّة على ضفّة نهر الدانوب اليمنى فكنّا نمتّع عيوننا بنظر سيّد الانهار وساعديه نهري لوم وجنترا اللذين يقطعهما القطار غير مرّة. وبعد ساعتين بلغنا نجداً متّسماً علوّه ٧٠٠ متر فوق سطح البحر وكنّا نشاهد من ثمّ كشبه بحر اخضر من الاشجار والغابات الغنّاء بينها الوهاد المحجوبة بالخضرة. وكانت جبال البلقان تلوح لنا عند الافق وشمس اصيل النهار تخضبها بالوانها الورديّة. وما لبثنا ان اقتربنا من تلك الجبال عند مغيب الشمس والثلوج تكسو قممها بثوبها الناصع. فقطعنا كوجا بلقان وجاوزنا بلفنا حيث جرت سنة ١٨٧٧ تلك الوقائع التي اكسبت عثمان باشا فخراً مؤبّداً فانّه مدّة اربعة اشهر ونصف قاوم كلّ قوات المسكوب ولولا شهامة جنود رومانية ونجابة سكوبليف لما أُلجي عثمان باشا الى التسليم. وكنّا نرى في طريقنا الآثار المثبتة بتلك الحوادث فهنا مدافن للقتلى وهناك كنائس ومشاهد ومزارات لذكر الابطال وفي محلّ آخر تماثيل ورموز تدلّ كلها على ما حدث من الملاحم والمآثر المفجعة

وكان دخولنا في صوفيا بعد منتصف الليل بنصف الساعة وكان البرد شديداً والجبال التي حول المدينة معمّمة بالثلوج الزرقاء. فبعد ساعات قليلة قضيناها في احد الفنادق بحثنا في السحر عن كنيسة الآباء الكبوشيين فاذا هي قريبة فقدّمنا الذبيحة الالهيّة ثمّ خرجنا لنستأنف طلب الرخصة من الوزارة الحربيّة بدخول ادرنة. ولحسن التوفيق وجدنا في صوفية قنصل ادرنة الفرنساوي وهو المسيو كوينه (Mr Cuinet) الذي كان ابرق مراراً الى سفارة دولته من سلامة المستعمرة الاوربيّة في ادرنة فالتمسنا

به وقدّمنا له فرائض الاكرام شاكرين لجنابه حسن رعايته لاقاربنا . وكذلك رحّب بنا معتمد الدولة الفرنسويّة في صوفيا ولمّا علم باني تجشّمت سفرًا طويلًا واني لم احظ بالجواب المطلوب على يد السفارة في الاستانة جعل في وقته يخاطب بالتليفون الوزارة الحربيّة ملحًا عليها بان تمنحني الرخصة بالدخول الى ادرنة. فوعدته خيرًا وما مرّ عليَّ بضع ساعات حتى فزتُ بالمرغوب عند المساء.

وقد صرفتُ قسمًا كبيرًا من النهار في تفقّد حاضرة البلغار وآثارها ودخلتُ قبل كلّ الى كنيستها الكاتدرائيّة التي شيّدوها على اسم القديس اسكندر تذكارًا لاوّل تحرير البلغار على يد المسكوب. وهي حقيقة بناء فخيم لم يدخروا فيه شيئًا من محاسن البناء والهندسة والنقش والتسيفساء. وسيتمّ تدشينها قريبًا بعد نهاية الحرب. وكذلك زرنا الباسيليقة القديمة «سوينا صوفيا» المبنيّة في القرون الوسطى . وهي من الطرز البوزنطيّ ذات ثلث اسواق وقد اضرَّ بها احد الزلازل التي دهمتها. ودخلنا ايضًا مجلس النوّاب المعروف بالسوبرانيه ومكتب البريد . وفي المدينة غير ذلك من الابنية التي مررنا بقربها كالقصر الملكيّ والكنيس الاسرائيليّ والحمّامات العموميّة. والحقّ يقال انّ صوفيا تجاري بمحاسنها ونظافة شوارعها واتّقتها اكبر عواصم اوربّة

وصوفيا مدينة رومانيّة يرقى عهدها الى القرن الاوّل للمسيح وقد جعلها القيصر طرياوس رأس معاملة ودعاها اولبيا سرديقا (Ulpia serdica) ثمّ اتّخذها الامبراطور اورليان سنة ٢٧١ مركز ولاية جديدة (Dacia mediterranea) وقيل انّ قسطنطين الكبير كان يرتاح الى سكناها فيدعوها عاصمة رومية . وقد احتلّها البلغار سنة ٨٠٩ فجعلوها تحت مملكتهم . والبلغار كما لا يخفى من العنصر الاوغروفنيّ المقارب للعنصر التركيّ واما لغتهم فقط فهي صقلبيّة اخذوها من الوطنيين الذين استولوا على بلادهم . واسمها صوفيا مشتقّ من اسم كنيستها الكاتدرائيّة . وقد فتحها بنو عثمان سنة ١٣٨٢ فبقيت في حوزتهم ٥٠٠ سنة يتولّاها امراء الروملي المعروفون ببكلربك. وملكها المسكوب سنة ١٨٧٨ فاتّخذوها كحاضرة امارة بلغارية وكان اميرها الاوّل البرنس اسكندر دي باتنبرغ في ٢٩ نيسان ١٨٧٩ ولمّا قلبته الثورة سنة ١٨٨٦ خلفه الملك الحالي فرديناند دي سكس كوبرغ غوتا في ٧ تموز ١٨٨٧

ثم نودي بهِ قيصراً في السنة ١٩٠٨ . وقد شيَّدوا بقرب الكنيسة الكاتدرائيّة تذكاراً جليلاً لتحرير البلغار من معدن البرنز يمثّل اسكندر الثاني قيصر روسيّة وبجواره اربعة من قادة جوقته . وصوفيا راقية كلّ يوم في معارج التقدُّم وعدد اهلها حالاً ٨٠,٠٠٠ ولم يكن سنة ١٨٨٠ الّا ٢٠,٠٠٠ . امّا بلغارية فكان عدد سكّانها قبل الحرب الاخيرة ٤,١٠٠,٠٠٠ نفس منهم ٣,٢٠٠,٠٠٠ من العنصر البلغاري ثمّ ٥٠٠,٠٠٠ من الترك و ٩٥,٠٠٠ تسيغان و ٨٤,٠٠٠ روماني و ٦٦,٠٠٠ يوناني و ٣٦,٠٠٠ يهودي ومثلهم الارمن مع غيرهم . ومن المعلوم انّ الحرب وسَّعت كثيراً حدود البلغار

ورأينا في صوفيا عدداً عديداً من أسرى الترك لاسيا الضبّاط وهم في بزّتهم العسكريّة ما عدا السيف يتجوّلون في المدينة بتمام الحريّة وقد فرّقتهم الحكومة البلغاريّة في انزال شتى وهي تصرف عليهم من مالها . وعلى ابواب هذه الانزال رجلان من الشرط يرقبان الاسرى وعند المساء يناديهم الشرط باسمائهم

قلنا انّ لغة البلغار هي صقلبيّة اي اخت الروسيّة لكنّ لغات اخرى جارية ايضاً على ألسنة البلغار واخصّها التركيّة فانّها شائعة في بلغارية يتكلّم بها الالوف من المسلمين الذين لم يهاجروا منها بعد تحرير بلغارية سنة ١٨٧٧—١٨٧٨ ومنهم من لا يعرف غيرها كشاتو البوماك (Pomaks) الذين يمتازون بملابسهم فعلى رؤوس رجالهم العمائم المروقة بالصاريق وتلبس نساؤهم الياشماق وكلّهم حائزون على حريّة دينهم لا يعارضهم احد فيه . والمسلمون في بعض المدن اكثر من سواهم بعد البلغار كفيليبه وروستشوك حيث التركية اشيع من اليونانيّة . وقد اختبرنا الامر حيث افادتنا في سفرنا اللغة التركيّة اكثر من اليونانيّة

وكان بودّنا ان نقضي في صوفيا يومين او ثلاثة لولا رغبتنا في قضاء واجباتنا الاهليّة في ادرنة . ففي صباح يوم الاربعاء ٣٠ نيسان طارت بنا اجنحة البخار الى مدينة صارت في الاشهر الاخيرة مطمح الآمال . فما كدت اصدّق اني في ذلك النهار أعاين وطني واعزّ اقربائي

بلغنا عند الظهيرة مدينة فيليه التي يدعوها البلغار بلوفديف (Plovdiv) الواقعة

على ضفة نهر ماريتزا والقطار يكاد يجاري هذا النهر طول النهار . وفيليبه كصيفتها صوفيا في ترقٍ متواصل . كان القدماء يسمّونها اوملپياس (Eumolpias) ثمَّ تسمَّت بمدينة فيليب آكراماً لفيلبُّوس الثاني ملك مقدونية . واهلها اليوم ١٨,٠٠٠ عدًا بينهم ٨,٠٠٠ مسلم يقضون فرائض دينهم في ٢٦ جامعاً او مسجداً . وهي مدينة رائجة الاسواق كثيرة المرافق . على انَّ ضيق الوقت لم يسمح لي بزيارتها

وكنَّا نواجه في طريقنا قطارات حديديَّة للصرب كانت موسوقة بادوات حربيَّة وقذائف اتَّخذوها لمحاصرة ادرنة . وقد لحظت الفرق العظيم بين العنصر البلغاري والعنصر الصربيّ . فانَّ الصرب بيض الالوان شقر الشعور والشوارب زرق العيون مستطيلو الوجوه امَّا البلغار فسحنتهم خشنة وبنيتهم ضخمة . وكنَّا نعاين الفريقين اذا التقيا ينظر بعضهم الى بعض شزرًا كأنَّهم اعداء وهم في الامس كانوا متحالفين لمحاربة الاتراك

وفي مساء النهار بلغ بنا سير القطار الى محطَّة مصطفى باشا حيث كان جيش البلغار معسكرًا في مدَّة حصار ادرنة ثم قطعنا بعد حين قاضي كوي ثمَّ مرلش وكنتُ اشعر بتأثُّر اعظم على قدر اقترابنا من ميدان الحروب حيث جرت الدماء البشريَّة سيولًا ودُفن الوف وربوات من الابطال

وبعد قليل بلغنا الجسر الحديديّ الذي قطعهُ شكري باشا يوم تسليمهِ لادرنة فأخذ القطار يسير سيرًا ليّناً فوق نهر اردا (Arda) بينما كنَّا نعاين مياههُ الجارية تحتنا ولما توسَّطنا الجسر رأينا نحو ثلث من جانبهِ قد سقط في النهر وكان البلغار اصلحوهُ واقاموا لهُ ركائز من خشب فقطع قطارنا على رسلهِ ذلك المعبر المخطر ثم صفرت اداتهُ واخذت تنهب الارض نهباً وللحال صرخ الرُكَّاب متهلِّلين وكان كثير منهم من البلغار فسمع جلبتهم اخوتهم المعسكرون هناك فهتفوا مثلهم كأنَّهم يهنّئونا بالسلامة

والمسافة من هناك قريبة الى ادرنه فوصلنا بعد بضع دقائق الى قراغاج وهي محطَّة ادرنه فنزلت وانا في غاية التأثُّر ولاعج الشوق فركبت عربة اقلَّتني من المحطَّة الى البلد والمسافة بينهما ٢٠ دقيقة واذ طرقتُ باب دارنا الوالديَّة دقَّت الساعة العاشرة

من الليل وهي الليلة السابقة للشهر المريمي وفي اولهِ عيد صعود الربّ الى السماء
(لها بقيّة)

اصل الحياة

خطاب القاه الاديب منصور افندي السوداء من جمعيّة الشبيبة الكاثوليكيّة

ليس كلّ شيءٍ في الطبيعة مادّةً هيوليّة . قال العلّامة دي كاترفاج (Mr de Quatrefages) : لا يستطيع الانسان مهما تمادى جهلهُ ألّا يرى في الطبيعة صنفين من الموجودات يختلفان كلّ الاختلاف اعني الجمادات والاجسام الاليّة

لا تنكر انهُ يوجد في كليهما خواصّ مشتركة تدخل فيهما جميعاً فانّ في دقائق الجسم الحيّ كما في تركيب الاجسام الصلبة اركاناً لا تختلف كالكربون والاوكسيجين والهدروجين والازوت والكبريت والفسفور فتعمل فيها العوامل الطبيعيّة والكيمويّة وتدخلها على سواء في الجوامد وفي الاجسام الحيّة

لكنّ هناك ما عدا هذه الاركان المشتركة فروقاً عظيمة تفصل بينهما فصلاً باتّاً لانّ لخلايا الحيّ وجداناً لا يدركهُ التحليل الكيمويّ وخواصّ لا تملكها المادّة قطعياً

فمن ذلك انّ لاجسام الاحياء بناءً يتكيّف بكيفيّات لا يفي بها احصاء على خلاف الجوامد المعدنيّة فانّ تركيبها يلزم حالةً واحدة

ومنها انّ الحيّ ينمو ويبادل في كلّ ساعةٍ دقائقهُ مع العالم الخارجيّ فيدخل عليهِ التركيب والتحليل بلا انقطاع . واذا بطل التركيب ودام التحليل أُصيب الحيّ بضربة لازبة ندعوها الموت . امّا الجسم الجامد فيبقى على تركيبهِ اللهمّ الّا اذا سطا عليهِ احد العوامل الخارجة

وكذلك الحيّ تراهُ يتقلّب في اطوارٍ مختلفة فيلوح في عالم الوجود ثمّ ينمو حتى اذا بلغ تمامهُ آل الى الضعف والهرم . امّا المعادن فلا تنمو واذا نمت كان نموّها بانضمام اقسام خارجة اليها ليس بتحويل الاجسام الغريبة الى ذاتها

واخيراً كلٌّ يعلم انَّ الحيَّ يولد شيئاً بهِ بالتناسل وهيهات ان تستطيع ذلك الجوامد

ولكن من اين للحيّ هذه الخواص المميّزة لهُ عن الجماد ؟ ذاك سؤَال يلقيهِ كلُّ انسان يبحث عن حقائق الامور أمّا الجواب عنهُ فيتحصَّل من ارباب العلم الحقيقيّ . قال الطبيعيّ دي كاترفاج : « انَّ معظم علماء عصرنا المعدودين في جملة اركان العلم الموثوق بهم لوفرة معارفهم يتَّفقون بالرأي على انَّ هذه الخواص التي نلحظها في الاجسام الآليّة انَّما هي ناجمة عن قوّة ذاتية خاصّة ندعوها الحياة تنضمّ فيها الى القوى غير الآليّة »

وهنا يتحدَّنا السائل بالسؤال قائلاً : وما هي الحياة ؟ نجيب انَّهُ لا مشكل في تمييز الكائنات الحيَّة عن سواها من الموجودات المعدنيَّة الصلبة لكنَّ الآراء تتعدَّد وتتقسم في تعريف ماهيَّة الحياة او المبدأ الحيّ

أليست الحياة مجموعاً خاصاً من القوى الكيمويّة كما زعم الماديّون فارتأوا انَّ الحياة هي تركيب الدقائق المادّية على صورة خاصّة . فممَّن ذهبوا الى هذا الرأي الكيموي هيدون (Hédon) لكنَّهُ لمَّا اراد ان يعرف الجرثومة الاولى او النطفة الاصليَّة (protoplasma) التي منها يتركَّب الحي ناقض نفسهُ بنفسهِ وتوَّع عنها الحياة التي اراد اثباتها فيها

ثم ظنَّ الطبيعيّ غلاي (Gley) انَّهُ يفكّ هذا السرّ بنسبتهِ الحياة الى عوامل كيمويّة وطبيعيّة معاً فلم ينل من فعلهِ غايةً اذ رأى انَّ تلك العوامل تغذي الاحياء وتنميها وهي على عكس ذلك تحلّل وتفني المادَّة الجامدة فهذه العوامل لا تعلّل الحياة والحياة ارقى من كلّ عامل طبيعيّ وكيمويّ ولا يفيدنا منها علماً الأبيان اصلها

اصل الحياة

اذا رقيتَ سلَّم الاعصار الخالية بلغت زمناً كانت فيها ارضنا حُمّة ناريّة ذائبة يضغطها ثقل ثلاثة آلاف جَلَد لا يستطيع ان يعيش فيها حيٌّ من الاحياء بل يستحيل وجود مبدأ الحياة فيها . ثمَّ مرَّت على كرَّتنا الاجيال فبردت قشرتها وأمكن وجود الاجسام الحيَّة فيها فلا بُدَّ من القول انَّ تلك الحياة ابتدأت فمن اين بلغت اليها الجرثومة الاولى او الخليَّة الحيَّة الاصليَّة . فالماديّون يلقون من شرح

القضيَّة عَرَق القربة ليعللوا وجود مبدأ الحياة . فمن مزاعمهم القريبة انَّ ارضنا اذ كانت سائرة في الفضاء سيرًا حثيثًا لقيت في طريقها سديمًا من مادَّة العوالم العلويَّة فكان في جملتها جراثيم حيَّة ادخلت الحياة في ارضنا . لكنَّ هذا التعليل الوهميّ مخالف لكل مبادئ العلوم الوضعيَّة فضلًا عن كونهِ لا يشرح كيف وُجدت الحياة في بقيَّة الاجرام العلويَّة ولذلك اهمل المادّيون هذا الرأي وطلبوا تعليلًا آخر لئلَّا يضطرُّوا الى الاقرار بوجود الخالق وموجد الحياة

ومن اشيع المذاهب التي راجت سوقها لدى ناكري وجود الله مذهب هيكل (Hæckel) الذي اعلن بان الطبيعة وحدها تستطيع ان تعلّل ذاتها ومن ثمَّ على زعمهِ انَّ كلَّ من ينسب شيئًا من الطبيعة الى غيرها يضادّ العلم . ولمَّا طلبوا اليهِ أن يثبت علميًّا وجود الاجسام الحيَّة بعد عدمها اخترع مذهبًا جديدًا سعى في وضع اساسهِ وتشييد اركانهِ بالحجج السوفسطائيَّة مدَّة اربعين سنة فكان كلَّ يوم يبدل ويزيد وينقص ويتلوَّى ويموج حتى كشف خصومهُ تلاعبهُ وخزعبلاتهِ واوهامهُ المختلفة وبيَّنوا تزويرهُ في رسم الصورات فجلبوهُ عارًا وسربلوهُ خزيًا

وها نحن نبسط هنا خلاصة المذهب الهيكلي ليكون القرَّاء على بصيرة منهُ فننتقدهُ كمذهب علميّ وفلسفيّ معًا فاذا بيَّنا بطلانهُ اضطررنا صاحبهُ الى ان يقرّ بوجود الهٍ صدرت عنهُ الحياة لأنَّ هيكل عينهُ قد أكَّد انَّهُ لا بُدَّ من التسليم بعقيدة وجود الخالق اذا ما ثبت بطلان مذهبهِ

قد دعا هيكل مذهبهُ بالمذهب الفرديّ (monisme) لزعمهِ انَّ الطبيعة كلها نجمت عن عامل فرد الذي بتحوُّلهِ التواصل على موجب سُنَنٍ ازليَّة لا مناص منها تداول وترقَّى متسلسلًا من الفرد الاوَّل الى ما لا نهاية لهُ من الكائنات . وقد تشدَّق بقولهِ انَّ مذهبهُ هذا وحدهُ مذهبٌ مؤسس على اصول العلم . امَّا القائلون بانَّ اصل الحياة من مكوِّنٍ خارج عن طور الطبيعة فانَّهُ يدعوهم بالثنويين ويدعو مذهبهم مذهب الثنويَّة اللاهوتيَّة (le dualisme théologique) وينسب قولهم الى الجهل والى اوهام لا سند لها

ذلك مجمل قول هيكل استاذ كليَّة يانا (Iéna) الذي دافع عن مذهبهِ هذا دفاع الامّ عن ولدها واللبوة عن شبلها . وقد كرَّر في كتاباتهِ العديدة انَّ كلَّ مظاهر

الحياة مرجعها الاخير الى المظاهر الطبيعية والكيموية فلا فرق بين هذه وتلك. ومن اقواله الغريبة « ان كل شيء يعلل اخيراً بالمظاهر الميكانيكية سواء كانت حركات الاجرام السماوية وسقوط الحجارة او نشوء النبات حتى ضمير الانسان »

فترى ان هيكل متوغل في المادة لا يرى غيرها في كل الطبيعة ومواليدها الثلثة من جماد او حي او ناطق فهلم بنا ننظر كيف يثبت رأيه والى اي ركن يسند البناء الذي شاده فان كان الركن مكيناً رضينا بزعمه والا سقط البناء وصح فيه قول السيد المسيح ان سقوطه يكون عظيماً

كان قدماء الملحدين اذا انكروا وجود الخالق وارادوا تعليل الاحياء التجأوا الى التولد الذاتي (génération spontanée) اما هيكل فاخترع الفاظاً جديدة ظن انه يموه بها على البسطاء فدعا اصل المولدات الحيوية «التكون الرئيسي الطوعي» (l'archigonie autogonique) ثم يباشر هيكل اثبات قوله زاعماً ان اول ظهور هذا التكون انما كان بوجود مادة دعاها النطفة الاولى (archi-planon) ثم هذه النطفة تنشّت بروح الحياة (bioplanon) ومنها تكونت كل مظاهر الحياة التي لم تزل تتسلسل بالتولد حتى وصلت اخيراً الى الانسان الاول. وهنا اتسع في كلام طويل على وصف مجالي الحياة في كل طبقاتها

وهكذا زعم هيكل انه اثبت رأيه بالبرهان . لكن خصومه اوقفوه للحال وسألوه قائلين: وهذه النطفة الاولى من اين حصلت وما هو اصلها

اسمعوا جوابه المضحك الذي يعيدنا الى التولد الذاتي بعد ان زعم ان مذهبه يخالف هذا المذهب قال :

« ان الجراثيم الاصلية (les monères primitives) قد تولدت ذاتياً في اعماق البحر كما تتكون التبلورات الملحية في المياه الصافية فكذلك تركبت عناصر الكربون والحامض الكربوني والهدروجين والازوت وبتألف هذه الاركان وجدت الحياة في اول العالم مع فعل الكهرباء والحرارة والضغط الشديد والامتزاجات الكيموية وعوامل أخرى نجهلها لان احوال تلك الاجيال الاولى كانت تخالف احوال زماننا الحاضر »

فهذه صفوة المذهب الهيكلي الذي زعم انهُ كافٍ ليجحد وجود الخالق وينفي فعلهُ في الجماد لانشاء الحياة

بهِ تفنّن هيكل في كلامهِ وعدد من العوامل الاوليَّة لا مناص لهُ من القول بالتولُّد الذاتيّ وانَّ الحيّ يوماً خرج من الجماد. وعليهِ اذا ثبتنا انَّ التكوّن الطوعي مستحيل بطل مذهبهُ واضمحلّ زعمهُ

شاع بعد ارسطو ذلك المبدأ الشهير انَّ فساد الواحد توليد الآخر (corruptio unius generatio alterius) وبناء عليهِ اعتقد القدماء انَّ بعض الحيوانات السافلة تتولَّد من العفونيَّات. وجاراهم في رأيهم علماء القرون الوسطى لكنَّهم نسبوا ذلك التوليد الذاتيّ الى قدرة الله الذي اتَّخذ بعنايتهِ هذه الوسيلة لتنمية الاحياء في العالم. ثم قامَ من بعدهم في القرن السابع عشر قوم زعموا انهم يولّدون فيران وعقارب دون تناسل لكنَّ الطبيعيّ رادي (Redi) ازال تلك الاوهام واماط عن وجه الحقيقة

ثمَّ اكتشف العلماء المجهر فلاحت لهم عوالم جديدة من الحيوينات الدقيقة التي كانوا يجهلون وجودها ولم يعلموا طريقة نموّها فعادوا الى اثبات التوليد الذاتيّ بنفي التناسل من حيّ الى حيّ. فعاكسهم سبالانزاني (Spallanzani) وابطل مزاعمهم. لكنَّ پوشه (Pouchet) استأنف الجدال سنة ١٨٥٨ ليقرّر مبدأ التكوُّن الطوعي مؤكّداً انَّ كائنات حيَّة تتولَّد في بعض القامات خلواً من حيّ سابقٍ اولدها. وقد اثبت المشرق سنة ١٩١١ (١٤: ٥٣–٥١) كيف تصدَّى لهُ العلّامة باسطور وبيَّن بالتجارب المتعددة المكرَّرة امام الجمعيَّات العلميَّة بانَّ الحيّ يتولَّد من الحي (omne vivum ex vivo) وانَّ المزاعم السابقة مبنيَّة على اوهام محضة او على امتحانات غير وافية لأنَّ پوشه وشيعتهُ اتَّخذوا لاثبات رأيهم سوائل لم تُحتَم فيها كلّ موارد الحياة ولو عقَّموا الهواء من كلّ الجراثيم الحيَّة لما تولَّدت احياء جديدة

فكان لامتحانات باسطور صدىً عظيم في كلّ الدوائر العلميَّة التي لم تُرِد الّا الاذعان للحقيقة الواضحة. لكنَّ الماديين وانصارهم رأوا في ذلك تلاشي مذهبهم ووجوب القول بخالق أوجد بقدرتهِ الحياة على الارض فاخذوا يطلبون لهم حججاً لاثبات رأيهم

وممَّن قالوا في ذلك بعض الشهرة المستر بورك (Burke) الذي روى المشرق في

السنة ١٩٠٥ اختباراتهِ (٨ : ٧٣٢ و ١١٥٠) ردًّا على المقتطف فهذا الطبيعي اتَّخذ ثلاثة انابيب مفرغة من الهواء وادخل فيها سوائل معقَّمة اضاف اليها هلاماً ثمَّ قسماً من البِبتون (peptone) والملح (chlorure de sodium) فجعل هذا المزيج في كلّ من الانابيب الثلثة لكنَّهُ اضاف الى الاوَّل دقائق من برومور الراديوم والى الثاني من كلورور الراديوم وابقى الثالث على حالهِ . فبعد ايَّام وجد في المزيجين الاوَّلين ذرَّات كرويَّة كانت تنشأ فتنمو ثمَّ تتقسَّم الى شبه الخلايا . فصرخ بورك ظافرًا انهُ أولد احياء من الجماد ودعا الذرَّات النامية راديوب (radiobes) اي مواليد الراديوم . واوَّل ما لحظهُ العلماء من امرها انَّها تخالف الميكروبات الحيَّة في عدَّة امور فهذه تقتلها الحرارة امَّا الراديوب فتتوارى فقط ثمَّ تعود بهبوط درجة الحرارة . كذلك وجدوا انَّ الماء الحارّ يقتل الميكروب ويحلّل الراديوب كما انَّ الراديوب تتحجب مع النور وتلوح في الظلمة على خلاف الميكروب . فبعد زمن قليل كشف سرَّ الراديوب العلَّامة رامساي (S. W. Ramsay) وبيَّن انَّ الراديوب ليست باحياء وانَّما هي نتيجة تحليل ماء الهُلام بواسطة املاح الراديوم فينشأ من ذلك كُريَّات غازيَّة ذات غلاف دقيق تلوح كالخلايا الحيَّة امَّا نموُّها فيفعل .الراديوم في الهلام ويزيد هذا الفعل حتى تتقسَّم الكريَّات . واذا نفذت فيها الحرارة بُرِّد الهلام وتفجَّرت الكريُّات الغازيَّة فلا يبقى اثرٌ للراديوب . امَّا الراديوم الباقي فيستطيع ان يستأنف فعلهُ في الهلام غير مرَّة بتركيب ذرَّات جديدة خالية من الحياة

وقام بعدُ بورك طبيب فرنساويّ من اساتذة نانت اسمهُ الدكتور اسطفان لودوك (Mr S. Leduc) فعمد الى اختبارات اخرى زعم انها تثبت التوليد الذاتي فعرضها على نادي العلوم في فرنسة في الجلسة المعقودة ٢٦ ت ٢ سنة ١٩٠٦ قال « انَّهُ اصطنع حبَّة مركَّبة من السكَّر وسلفات النحاس وجعلها في مزيج من الماء والهلام وفورسيانور البوطاسا مع شيءٍ من الملح . فلحظ انَّ الحبَّة المذكورة انتفخت ثمَّ ذرَّت بنبات بلغت اغصانهُ ٣٠ سنتيترًا وفي جوانب الاغصان اوراق باشكال مختلفة كالاشواك والسنابل والكرين كما ترى في النباتات » . فارتأى موسيو لودوك انَّهُ اكتشف الطريقة التي لتوليد احياء من الجماد بواسطة العوامل الطبيعيَّة والكيمويَّة وحدها وتغنَّى بنشيد الظفر

على انَّ ظفر المسيو لودوك لم يدم زمناً طويلاً فبيَّن له احد مشاهير الطبيعيين الفرنسويين المسيو دارنسوفال (Mr d'Arsonval) انَّ تلك المستنبتات ليست من جنس الاحياء وانَّما هي داخلة في باب امتزاج السوائل في بعضها المسمَّى اوسموز (osmose) وهو شيء معروف . فدُعي اكتشاف المسيو لودوك تهكُّماً احجيَّة الحياة (le calembourg de la vie) وبلغ الخبر الى وزير المعارف فزَّق القرار الذي كان كتبهُ لترقية المسيو لودوك الى رتبة استاذ في مكتب العلوم الفرنسويَّة (le Collège de France) وبعد ان عاد هذا الاكتشاف المزعوم على صاحبه بالخزي رأينا مجلَّة مصريَّة قد اثبتتهُ مؤخَّراً تأييداً لرأي المادّيين . وليس هذا اوَّل انكساف يصاب به بدر المجلَّات المصريَّة

وقد طنطنت جرائد الملحدين باكتشاف آخر لاحد علماء انكلترة المادّيين الاستاذ هكسلاي (Huxley) الذي كان استخرج من اعماق البحر حمأةً غرويَّة هلاميَّة بيضاء ارتأى انَّها هي النطفة الاصليَّة التي كانت مبدأ الكائنات الحيَّة فدعاها باثيبيوس (bathybius) اشارةً الى وجودها في قعر البحر وكتب في ذلك كتاباً اهداهُ الى صديقهِ هيكل الذي شكرهُ على اكتشافهِ وأمَّل منهُ خيراً لكنهُ لم يجدهما نفعاً

وبعد احدى عشرة سنة حضر هكسلاي مؤتمر علماء وطنهِ في شيفلد . فافتتح المؤتمر رئيسهُ المستر الّمان (Allmann) فعرَّض بذكر نطفة الباثيبيوس فلمَّا انتهى قام هكسلاي خطيباً وتخطَّى الى ذكر الرئيس للباثيبيوس فاقرَّ بأنَّهُ هو ابو هذا المولود وانَّهُ هو الذي عمَّدهُ باسمهِ الغريب وانَّهُ كان في حسبانهِ انَّ الطفل سينشأ ويترعرع لكنَّهُ لم يزل سقيماً مهزولاً لم يحقّق ما بنى عليهِ والدهُ من الآمال بل جملةً خزياً واضحوكةً عند الناس ومن ثمَّ يتبرَّأ منهُ بازاء المؤتمر العلميّ ويقرّ بان هذا المولود الحيّ ليس هو الا راسباً من سولفات الكلس امتزجت معهُ في رسوبهِ بعض موادّ آليَّة

فكان الحضور يسمعون هذا الخطاب ويستغربون ضحكاً وأثنوا على وصيفهم الذي اقرَّ هكذا بخطاءِ على طريقة هزليَّة ومات الباثيبيوس من ذاك الوقت ما لم نجد حتى اليوم آثار حياتهِ في المجلَّات المصريَّة المتأخّرة في سبيل العلم كمألوف عادتها على انَّ هذه الاختبارات لم تقنع بعد هيكل وتبعتهُ فانَّهم يحيون رجاءهم كلّ

يوم في اكتشاف ينابيع الحياة وحجتهم انَّ الكيماويين يركّبون اليوم اجساماً عديدةً مشكلة التركيب كالكحولات والحامض الخلّي والحامض النملي والمادة البولية (urée) فالامل معقود ايضاً ان يركّبوا مادةً حيّةً كما ترى في زلاليّات الكربون .

على انَّ ذوي العقل الراجح يردّون على قولهم بانَّ مبدأ الحياة هو في طور اعلى من المادة فهما ركّبوا وحلّلوا لا يستطيعون ان يوجدوا مادةً حيّة . وهذا القول يكرّره ليس اللاهوتيّون فقط بل العلماء الماديّون انفسهم . قال احدهم العالم الشهير ورشوف (Virchow) : « انّنا نقرّ بصراحة نحن الماديين انّنا نودّ لو صحَّ مذهب التولّد الذاتي لكنّا لم نعلم حتى اليوم اختباراً واحداً يثبت تولّد مادةٍ آلية من مادةٍ غير آلية » . ومن ثمَّ يجب القول انَّ الذي ينفي هذا المذهب ليسوا اللاهوتيين بل العلم المتجرّد

وزاد تندال (Tyndall) تصريحاً على ورشوف وهو يرتئي رأيهُ في تكوان الروحيّات فقال : « انَّ من قال بتولد الحيّ ذاتيّاً يأتي برأي نهاية في الغرابة والتحش » وتندال هذا من الوضعيين نكرة وجود الاله

ولا يجدي هيكل نفعاً ثولهُ بان الاحياء في زماننا لا تتكوّن من ذاتها وانّما تكوّنت قديماً لاختلاف الظروف . لأنَّ هيكل يزعم هذا ينكر ثبوت سُنن الطبيعة التي لا تتغيّر مع الزمان والمكان فان سلّم بانَّ الحيّ في عهدنا لا يتولّد من ذاته وجب عليه القول بذلك في الازمنة الخالية . وقد علّل الامر الجيولوجيّ الشهير السير دي لاباران (de Lapparent) حيث قال : « نسلّم لهيكل بان القوى الطبيعية كانت في سالف الدهور اشدّ واقوى منها اليوم ولكنّها لم تكن من جنس آخر وان قلنا بالتولّد الذاتي وجب القول بانَّ حقيقة تلك القوى كانت مختلفة عن حقيقتها اليوم وذلك شطط ظاهر »

فان كان الامر كذلك لا يبقى لهيكل الّا ان يقرّ بشططهِ فان رضي جرى مع العلم واتمَّ ما شرط به على نفسه ان يقرّ بوجود الخالق اذا ثبت انَّ مذهبهُ ليس بصحيح . وان ابى قام عليه العلماء حتى الماديّون وزيّفوا رأيهُ الواهن باسم العلم والحقيقة

وكم يكرم الانسان ذاتهُ باقرارهِ بحقيقة وجود ذلك الذي رفعهُ فوق المادّة واعطاهُ قوى نفسه . وهكذا فعل تندال بعد تشبّثه بمبدأ الماديين فقال : « اني اجد

في الحيّ الارضي موطناً ارتقي بهِ من دقائق المادَّة الى تكوين الخالق». وقال دروين نفسهُ: «انَّهُ يوجد نوع من العظمة ورفعة المقام اذا اعتبر الانسان الحياة وخواصّها كهبة وهبها الخالق في بدءِ وجودها للمخلوق»

وعليهِ قد صدقت التوراة الصدق التامّ اذ افتتحت كلامها في سفر التكوين بذكر خلقة الله للحيّ بعد ذكرها لتكوينهِ المادَّة الجامدة وهذا التوافق العجيب بين آيات الوحي وبيّنات العلم يقرّر على اجلى منوال انَّ الدين شقيق العلم وليس بينهما مناقضة البتَّة

البرهان الصريح

في اثبات أُلوهيَّة المسيح

ردًّا على مجلَّة المنار للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثالث

أُلوهية المسيح في شهادة القديس يوحنا المعمدان

قد حان الوقت للسيّد المسيح بان يظهر وهو القائل (لوقا ٨: ١٦) «ليس احد يوقد سراجاً فيغطّيهِ باناء او يضعهُ تحت سريرٍ بل يجعلهُ على منارة ليرى الداخلون نورهُ» وكان المسيح (يوحنا ١: ٩): «هو النور الحقيقي الذي ينير كلَّ انسان آتٍ الى العالم»

كان يكفي لهذا النور الالهيّ ان يظهر للعالم ليبهر العالم فيقرّ الناس باجمعهم لسطوع نورهِ. ومن ثمَّ ما كان المسيح محتاجاً لشهادة انسان ليثبت دعوتهُ. أفما كانت النبوّات العديدة المفصَّلة اوضحت كلَّ اسرار حياتهِ وحدَّدت كلَّ تفاصيل مجيئهِ من زمان ومكان واحوال مختلفة؟ الم يستطع ان يفحم الجاحدين بذكر مولدهِ العجيب في بيت لحم وسجود الملوك لهُ في مذودهِ وشهادة سمعان الشيخ وحنَّة النبيَّة

يوم دخوله الهيكل ؟ كلّ ذلك كان كافياً مستوفياً جديراً بان يقنع اليهود بانّ يسوع هو المسيح ابن الآب الازلي

لكنّ الله في رحمتهِ أعدّ لضعف بني اسرائيل شهادةً أخرى لم يمكنهم ردُّها نريد بها شهادة يوحنّا المعمدان التي تقوم وحدها مقام اصدق الشواهد عن لاهوت المسيح

ومن المعلوم انّ الشهادة تزيد قوّةً ويقيناً على قدر فضل الشاهد. فمن هذا القبيل لا نجد في صفحات تاريخ العالم ما يشبهُ شهادة يوحنّا المعمدان. فانها شهادة فريدة كما كان الشاهد بها فريداً في شخصهِ ومقامهِ

قام في العالم انبياء عظام كموسى وايليّا واشعيا ولكن ليس بينهم واحد سبقهم انبياء غيرهم فتنبأوا عن مجيئهم ومن اعمالهم الّا يوحنّا بن زكريّا الذي صرّح الانبياء برتبتهِ ومهمّتهِ فقال ملاخي (٣ : ١ راجع متى ١١ : ١٠) . « ها انذا مُرسل ملاكي فيهيئ الطريق امامي والوقت يأتي الى هيكلهِ السيّد الذي تلتمسونهُ وملاك العهد الذي ترتضون بهِ » . وقال اشعيا (٤٠ : ٣ وراجع متى ٣ : ٣ ومرقس ١ : ٣ ولوقا ٣ : ٤) : « صوت صارخ في البرّيّة أعِدُّوا طريق الربّ واجعلوا سبل الهنا في الصحراء قويمة » . ومثلهُ تنبأ عنهُ زكرياً والدهُ فقال (لوقا ١ : ٦٦) : « وانت ايها الصبيّ نبيّ العلي تُدعى لانك تسبق امام وجه الرب لتعدّ طريقهُ »

وكذلك تفرّد يوحنّا بمولدهِ المجيب على حسب بشارة الملاك وبتقدّسهِ في احشاء والدتهِ وبافاضة النعم على والديهِ يوم ولادتهِ وختانهِ . وامتاز بعيشتهِ في البرّيّة في النسك وشظف العيش واعمال البرّ والرياضات التقويّة لابساً اللابس الخشنة من وَبَر الابل آكلاً الجراد وعسل البرّ منذراً باعمال التوبة مقرّعاً للخطأة غير متهيّب لعظمة الملوك ورؤساء اسرائيل . وكانت الجموع تتوارد اليهِ لتسمع كلامهُ وتتيب الى الله على يدهِ وكلّهم يعتبرونهُ كنبيّ ويتساءلون اليس هو النبي العظيم الموعود بهِ من الانبياء . وقد عظّمهُ السيّد المسيح بقولهِ (متى ١١ : ٩ — ١١) : « انهُ نبيّ وافضل من نبيّ . . لم يقم في مواليد النساء اعظم منهُ » وبقولهِ (يوحنّا ٥ : ٣٥) انهُ « كان السراج الموقد المنير » . وقد ختم يوحنّا تلك الحياة الصالحة بميتة الشهداء اذ لم يُحابِ بالوجوه وانكر على هيرودس زواجهُ بامرأة اخيهِ فألقي في السجن وقُطع رأسهُ باغراء الزانية التي قبّح اعمالها

ذلك كان الرجل الذي اختاره الله ليؤدي الشهادة على السيد المسيح وكفى بشهادته دليلاً على لاهوت يسوع بن مريم

وهذه الشهادة لها المقام الارفع في حياة يوحنا المعمدان بل هي هو وكأنهُ لم يُرسل لغاية اخرى ألا ليؤدي بها . قال يوحنا الانجيلي عن المعمدان (١ : ٦ – ٨) : « كان رجلٌ مرسل من الله اسمهُ يوحنا . هذا جاء للشهادة لكي يشهد للنور حتى يؤمن الجميع على يده . لم يكن هو النور بل كان ليشهد للنور ». ولما ارسل اليهود من اورشليم كهنةً ولاويين يسألون يوحنا المعمدان ماذا يقول عن نفسه اجابهم بقوله (يوحنا ١ : ٢٣) : « انا صوت صارخ في البرّية قوّموا طريق الربّ ». ومُفاد هذا القول انهُ جاء ليعدَّ الطريق للمسيح ويهيّئ القلوب لقبول دعوته ويشهد له . وكذلك السيد المسيح مع عدم احتياجه الى شهادة غيره استند الى شهادة يوحنا حيث قال لليهود (يوحنا ٥ : ٣١ – ٣٢) : « ان كنتُ انا اشهد لنفسي فليست شهادتي حقاً . انا الذي يشهد لي هو آخر وانا اعلم انَّ شهادتهُ حقٌ »

فعلينا اذن ان نبحث عن شهادة يوحنا ونتبيّن معناها الصحيح

لم يؤدِّ يوحنا المعمدان شهادةً واحدة بل عدّة شهادات وكلها ترمي الى غاية واحدة الى الاعلان بان يسوع هو المسيح المنتظر والاله الحيّ . شهد بذلك اولاً وهو جنين في احشاء والدته . وشهد به ثانياً يوم تعميده للسيد المسيح . وشهد ثالثاً امام جمهور الشعب . ورابعاً امام تلاميذه . وخامساً واخيراً امام رؤساء الشعب والفريسيين والاحبار

١ (شهادة يوحنا في احشاء والدته) لعمري انها لميزةٌ عظيمة اختصَّ بها يوحنا المعمدان بان يقوم شاهداً لابن الله من قبل مولده وذلك كما اخبر به لوقا الانجيلي (١ : ٣٩ – ٤٦) لمَّا رحلت مريم العذراء بعد حملها الطاهر بابن الله الى زيارة نسيبتها القديسة أليصابات . فما دخلت بيتها وأسمعتها صوت سلامها حتى ارتكض الجنين في بطن اليصابات وامتلأت من الروح القدس فصاحت بصوت عظيم وقالت : مباركةٌ انت في النساء ومباركة ثمرة بطنكِ . من اين لي هذا ان تأتي امُّ ربّي اليَّ فانهُ عند ما بلغ صوت سلامكِ الى اذنيَّ ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني فطوبى للتي آمنت لانهُ سيتمُّ ما قيل لها من قبل الربّ »

فهذه الشهادة اداها يوحنا الجنين ليسوع ربه الجنين فكأنهُ عند دخول مريم في بيت أليصابات شقّ عليهِ ان يبقى في احشاء امهِ فودّ لو امكنهُ ان يخرج من مستودعهِ ليسجد لخالقهِ الذي زكّاهُ في تلك الساعة وطهّرهُ من الخطيئة الجدّية التي يولد فيها بنو آدم . واذ لم يمكنهُ ان يؤدّي شهادة اللسان أنطق بقوّة الروح القدس والدتهُ اليصابات فنابت عنها بالشهادة الحيّة وأعلنت بمقام مريم العذراء التي دعتها «امّ ربّها» اي امّ إلهها ودعتها «المباركة بين النساء» واقرّت بانّ الجنين المولود منها هو «الربّ» اي الاله «والثمرة المباركة» التي وُعد بها اسرائيل . ثمّ لم يلبث ان حلّ ذلك الروح على زكريا اي يوحنا فشهد للاهوت المسيح بالنبوّة مؤكّداً (لوقا ١ : ٦٨ - ٨٠) ان «اله اسرائيل افتقد وصنع فداء لشعبهِ» وانهُ «اقام قرن الخلاص في بيت داود وافياً بوعدهِ للانبياء» وانّهُ هو «العليّ» فدعا لذلك ابنهُ يوحنا «نبيّ العليّ ليعدّ طريقهُ» وينال شعب اسرائيل بنعمتهِ مغفرة خطاياهم . وانهُ اخيراً ذاك الشرق الذي عنهُ تنبأ سميّهُ زكريا النبي (٦ : ١٢) فظهر «ليضيء للجالسين في الظلمة وضلال الموت ويرشد اقدامهم الى سبيل السلامة»

فما ابلغ هذه الشهادات التي يجوز ان ننسبها الى يوحنا في غرّة حياتهِ بفم والديهِ ولا سيما والدتهُ كما قرّر ذلك الآباء والمعلمون شرقاً وغرباً . قال القديس امبروسيوس الملفان في شرحهِ على انجيل لوقا :

«سمعتْ اليصابات اوّلاً بأذنيها الصوت لكنّ يوحنا احسّ قبلها بالنعمة . هي سمعت وفقاً لنظام الطبيعة وهو تهلّل وفقاً لسرّ حصل في باطنهِ . شعرت الأمّ بمجيء مريم امّا الابن فشعر بمجي المسيح الذي في احشائها . . . الاثنان كلاهما باعجوبة باهرة تنبّأتا بروح ولديهما . . . امتلأ يوحنا من الروح القدس فملأ منهُ والدتهُ أليصابات»

وقال قبلهُ الذهبيّ الفم في خطبتهِ التي رواها عنهُ متافرستس وقد دُرّةُ من خطيب

«ما كاد نادينا يتزل الى ضعف جنسنا حتى سار من وقتهِ الى صديقهِ يوحنا وهو في احشاء والدتهِ فاذ شاهد يوحنا من مستودع امهِ يسوعَ المقبل اليهِ في احشاء مريم زعزع كلّ جدران الطبيعة صارخاً : «اني أرى سيّدي فلا انتظر الى موعد ولادتي . اني لا احتاج الى تسعة اشهر اذ حلّ فيّ روح الاله فاخرجُ من حبسي المظلم واشهد بالعجائب الجارية . انا العلَم فأعلم بمجيء المسيح واكشف عن سرّ تجسّد ابن الله . انا البوق الصارخ فاستعير لسان امي لأعلن بهذا السر

واجعل الحياة في رحمها .. كيف ابقى مقيَّدًا بالاغلال في حبس البطن وقد قدم اليَّ من يفك الاغلال . جاء الكلمة ليحرِّر كلَّ شيءٍ أفأبقى اسيرًا ؟ كلَّا ها اني اخرج. انا السابق فأسبق وابشِّر للجميع : هوذا حمل الله هوذا رافع خطيئة العالم . . . انا الصوت الصارخ فاهتف : ها قد لبس ابن الله الوحيد طينتنا الجسدية . . . »

٢ (شهادة يوحنَّا للاهوت المسيح يوم عماده) انحصرت شهادة يوحنَّا الاولى في بيت والديهِ قرَّت عليهِ السنون وهو يعيش في البرِّيَّة في العزلة والزهد وكذلك المسيح بقي محجوباً في الناصرة ثلاثين سنة وكلاهما ينتظر ورود الساعة المعيَّنة من الله لكشف سرِّ الفدى . فتقدَّم اوَّلًا ظهور السابق منذرًا ليعدَّ طريق الربّ وداعياً بني اسرائيل الى التوبة ومعموديَّتها لاستقبال المسيح المنتظر وهو مع ذلك لم يشاهده عياناً منذ مولدهِ . فاراد السيِّد المسيح ان يعتمد ايضاً بمعموديَّة يوحنَّا وهو في غنى عنها ليؤيِّد بذلك دعوة السابق ويعرِّفهُ بشخصهِ الكريم ويفتتح دعوتهُ الشريفة . فما اقترب المسيح من يوحنَّا طالباً معموديَّتهُ حتى اوحى بهِ الروح القدس الى يوحنَّا فاراد هذا من ساعتهِ ان يخضع لهُ ويتذلَّل امامهُ كالمرؤوس امام رئيسهِ والعبد امام سيِّدهِ لولا ان المسيح امرهُ بتعميدهِ . قال متى الرسول (٣ : ١٣ — ١٧) : « حينئذٍ أتى يسوع من الجليل الى الاردن الى يوحنا ليعتمد منهُ وكان يوحنا يُمانعهُ قائلًا : انا المحتاج ان اعتمد منك وانت تأتي اليَّ . فاجابهُ يسوع قائلًا : دع الآن فهكذا ينبغي لنا أن نتمَّ كلَّ برّ » . فتعمَّد يسوع وجرى ما جرى من الآيات التي اعلنت بدعوتهِ امام الشعب حيث انفتحت السماء ونزل على يسوع الروح القدس في صورة جسديَّة مثل حمامة وسُمع من السماء صوت الآب قائلًا : « هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سُررتُ » وكان اوَّل شاهد على هذه العجائب يوحنا المعمدان نفسهُ وأكَّد صحَّتها كما روى يوحنا في انجيلهِ (١ : ٣٢ : ٣٤) : « وشهد يوحنا قائلًا : اني رأيتُ الروح مثل حمامةٍ قد نزل من السماء واستقرَّ عليهِ وانا لم أكن اعرفهُ لكنَّ الذي ارسلني لأعتمد بالماء هو قال لي : انَّ الذي ترى الروح ينزل ويستقرّ عليهِ هو الذي يعمّد بالروح القدس وانا عاينتُ وشهدتُ انَّ هذا هو ابن الله »

فليت شعري ايّ شهادة اعظم واثبت من شهادة يوحنا المعمدان الذي كان يعتبرهُ اليهود لقداستهِ كنبيٍّ عظيم وقد اطرأ يوسيفوس اليهودي مآثر قداستهِ في كتابهِ

العاديات اليهوديّة (Josephus, *Ant. Jud.*, XVIII. v. 2) وروى ايضاً تعظيم اليهود لشخصهِ حتى نسبوا كسرة جيوش هيرودس انتيباس لقتلهِ لهُ. وكذلك عدَّهُ في القرآن (في سورة آل عمران ٣: ٣٩): «مصدقاً بكلمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبياً من الصالحين» وقال في سورة مريم (١٩: ١٤) «انهُ كان تقيّاً وبرّاً بوالديهِ ولم يكن جبّاراً عصياً» فهذا هو الذي شهد ليسوع في معموديّتهِ بأنهُ ابن الله وان الروح القدس حلَّ عليهِ وانهُ يعمّد بالروح القدس لمغفرة الخطايا ليس بالماء فقط للتوبة كمعموديّة يوحنا

٣ (شهادة يوحنا للاهوت المسيح امام الشعب) قلنا انَّ يوحنا أُرسل من الله ليعدَّ الطريق لمجيءِ المسيح فقد جعل ذلك نُصب عينيهِ في طول مدة كرازتهِ حتى قبل أن يأتي اليهِ السيّد المسيح ويعتمد منهُ فانهُ في اول كلامهِ الى اليهود يصرّح بذلك كما روى الانجيليّون. قال القديس متى يروي خطاب يوحنا الصابغ (٨: ١٢): «اثمروا ثمراً يليق بالتوبة. . . انا أُعمدكم بالماء للتوبة واما الذي يأتي بعدي فهو اقوى مني وانا لا استحق أن احمل حذاءهُ وهو يعمدكم بالروح القدس والنار. الذي بيدهِ المذرى ينقّي بيدرهُ ويجمع قمحهُ الى الأهراء ويُحرق التبن بنار لا تُطفأُ . . .» فهي شهادة صريحة وصف فيها يوحنا المعمدان السيّد المسيح بالقوة وعلوّ المرتبة وبالمعموديّة الروحيّة ثم خصّهُ بصفة الديّان للاشرار والابرار

وزاد يوحنا الانجيلي صراحة في شهادة المعمدان عن لاهوت المسيح فقال (١: ١٥ — ١٧): «ويوحنا شهد لهُ وصرخ قائلًا: هذا هو الذي قلتُ عنهُ انَّ الذي يأتي من بعدي قد كان قبلي لانهُ اقدم مني. ومن امتلائهِ نحن كلّنا اخذنا نعمة مكان نعمة لانَّ الناموس أُعطي بموسى واما النعمة والحقّ فبيسوع المسيح حصلا. الله لم يرهُ احد قطّ. الابن الوحيد الذي في حضن الآب أخبرَ»

فللّه درُّها من شهادة ذهبيّة احتوت كلَّ صفات اللاهوت: ١ قِدمُ المسيح الذي مع كونهِ جاء في الزمان بعد يوحنا هو مع ذلك كانَ قبلهُ لازليّتهِ. ٢ كمالهُ الالهي اذ هو ممتلئ من النعم حتى انَّ الكلَّ يأخذون من امتلائهِ ويغترفون من بحرهِ. ٣ شرفُ المسيح فوق موسى اذ اورثنا الحقّ والنعمة. فكان الله انعم على شعبهِ بالناموس لكنَّ الناموس وحدهُ لا يبرّر الانسان بل يوجب اثمهُ كما قال بولس الرسول. فجاء السيّد المسيح فبدل هذه النعمة بنعمةٍ اعظم وهي نعمة التبرير والقوّة لممارسة

فرائض الناموس. ٦ جوهر المسيح الالهيّ الذي وحده كان في حضن الابن مساوياً له في الجوهر وعارفاً بكل اسراره. التي نزل الى الارض ليكشف بها للبشر فيكونوا « معلّمين من الله » (يوحنا ٦ : ١٣)

وقد اثبت يوحنا هذه الشهادة امام اليهود في يوم آخر كما روى الانجيليّ (يو ١ : ٢٩) قال : « وفي الغد رأى يوحنا يسوع مقبلاً اليهِ : فقال : هوذا حَمَل الله الذي يرفع خطيئة العالم هذا هو الذي قلتُ عنهُ انهُ يأتي بعدي رجلٌ قد جُعل قبلي لانهُ اقدم مني وانا لم اكن اعرفهُ ولكن لكي يُظهَرَ لاسرائيل جئتُ انا اعمد بالماء » فترى انَّ شهادات يوحنا لا تبقي ريباً لمرتيب وكلّها تصف المسيح بصفات اللاهوت . وهذه الشهادة الاخيرة تعرّفهُ كفادي البشر من خطيئتهم باستحقاقات لاهوتهِ مشيرةً الى كونهِ ذاك الحَمَل الذي تنبأ عنهُ اشعيا (٥٣ : ٧) حيث قال عن المسيح : « قُدّم وهو خاضع ولم يفتح فاه. كشاة سيق الى الذبح وكحمل صامت امام الذين يجزُّونهُ ولم يفتح فاهُ . . . هو حمل خطايا كثيرين وشفع في العُصاة »

٤ (شهادة يوحنا امام تلاميذهِ) كان ليوحنا تلاميذ كما ليسوع تبعوهُ ليجروا على طريقتهِ النسكيَّة . فكما شهد ليسوع امام الشعب شهد ايضاً امام تلاميذهِ وعرَّفهم برتبة المخلّص وصفاتهِ الالهيَّة . فمن ذلك ما اخبر بهِ يوحنا الانجيليّ (١ : ٣٥) انَّ المعمدان كان يوماً مع اثنين من تلاميذهِ فنظر يسوع ماشياً فقال : « هوذا حمل الله فسمع التلميذان كلامهُ فتبعا يسوع » . وكان الواحد منهما اندراوس اخا سمعان جلب اخاهُ الى يسوع بعد ان تتلمذ هو لهُ . وعليهِ ترى انَّ اوَّل من تبع يسوع قد تبعهُ باغراء يوحنا المعمدان استناداً الى شهادتهِ

وقد كرَّر يوحنا هذه الشهادة وهو في حبس هيرودس اغريبا قبل موتهِ بزمن قليل وذلك انَّهُ اراد ان يرشد تلاميذه الى اتباع يسوع فلا يبقوا بعد موتهِ كخرافٍ بلا راعٍ ولذلك اتّخذ وسيلةً لطيفة ليوقفهم على حقيقة دعوة المسيح ليروا اعمالهُ العجيبة . ويستدلّوا بها على كونهِ ابن الله قال متى في انجيلهِ (١١ : ٢–٦) ومثلهُ لوقا (٧ : ١٨) : « ولما سمع يوحنا وهو في السجن باعمال المسيح ارسل اثنين من تلاميذهِ يقولان لهُ : أأنت الآتي لم ننتظر آخر فاجاب يسوع مستشهداً بقول اشعيا عنهُ (٣٥ : ٥ و٦١ : ١) : « اذهبا وأعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما . العميان يبصرون

والعرج يمشون والبُرص يطهَّرون والصمّ يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشَّرون وطوبى لمن لا يشكّ فيَّ » ومن المقرَّر انَّ يوحنا لم يشكّ مطلقاً في المسيح فكان جواب السيّد المسيح في الظاهر ليوحنا وهو بالحقيقة لتلاميذهِ . ولذلك مدح يوحنا بعد ابتعاد تلميذيهِ ذلك المديح الجليل الذي اشرنا اليهِ سابقاً

٥ (شهادة يوحنا امام رؤساء الشعب والكهنة) ولعلّ اعظم من كلّ الشهادات السابقة الشهادة التي اداها يوحنا المعمدان للربّ يسوع امام رؤساء الشعب والكهنة . لانَّ هذه طلبوها منهُ رسمياً وعلى صورة قانونيَّة كما يطلبها ارباب الامر . قال الانجيليّ يوحنا (١ : ١٩—٢٤) :

« وهذه هي شهادة يوحنا اذ ارسل اليهود من اورشليم كهنةً ولاويين ليسألوهُ من انت فاعترف ولم ينكر واعترف انّي لستُ المسيح . فسألوهُ : اذن ماذا أايليّا انت . فقال : لستُ ايّاهُ . أالنبي انت : اجاب : كلّا . فقالوا لهُ : فمن انت لنردّ الجواب على الذين أرسلونا . ماذا تقول عن نفسك . فقال : انا صوتُ صارخٍ في البرّيَّة قوّموا طريق الربّ كما قال اشعيا النبيّ . وكان المرسلون من الفريسيين فسألوهُ وقالوا لهُ : فلمَ تعمّد ان كنتَ لست المسيح ولا ايليّا ولا النبيّ . اجابهم يوحنا وقال : انا اعمّد بالماء . ولكنّ بينكم من لستم تعرفونهُ هو الذي يأتي بعدي وقد جُعل قبلي الذي انا لا استحقّ ان احلّ سير حذائهِ وكان ذلك في عبر الاردن »

فترى في هذه الشهادة الرسميَّة كلّ ما سبق ليوحنا من تذليل نفسهِ وتعظيم سيّدهِ المسيح الذي نوَّه بتقدمهِ مع كونهِ وُلد بعدهُ

وليوحنا شهادة اخرى اداها لتلاميذهِ ولليهود معاً جمع فيها كل صفات السيّد المسيح الالهيَّة . قال يوحنا في انجيلهِ (٣ : ٢٦ — ٣٦) :

« وكانت مناظرة بين تلاميذ يوحنا واليهود في شأن التطهير فاقبلوا الى يوحنا وقالوا لهُ : يا معلم ذاك الذي كان معك في عبر الاردنّ الذي انت شهدت لهُ ها انهُ يعمّد والجميع يقبلون اليهِ . فاجاب يوحنا وقال : لا يستطيع الانسان ان يأخذ شيئاً ما لم يُعطَ لهُ من السماء . انتم تشهدون لي بأني قلتُ لكم اني لستُ المسيح بل انا مرسل امامهُ . من لهُ العروسة فهو العروس واما صديق العروس الواقف يسمعهُ فهو يفرح فرحاً لصوت العروس ففرحي ها قد تمَّ ولهُ ينبغي ان ينمو ولي ان انقص لأنَّ الذي جاء من العلاء هو اعلى من الكلّ والذي من الارض هو ارضيّ وبالارضيَّات ينطق والذي اتى من السماء هو فوق الكل وبما عاينَ وسمع يشهد ولكن ليس احد يقبل شهادتهُ والذي قبل شهادتهُ فقد ختم انَّ الله صادق لأنّ الذي ارسلهُ الله يتكلّم بكلام الله لأنَّ الله لا يعطي الروح بمقدار . الآب يحبُّ الابن وقد جعل في يدهِ كلّ شيء من يؤمن بالابن فلهُ الحياة الابديَّة ومن لا يؤمن بالابن فلا يعاين الحياة ولكن غضبُ الله مستقرٌ عليهِ »

فمن يعتبر هذه الشهادة يجدها تامّةً وافية جامعة لأخصّ الكمالات الالهيّة التي في المسيح فانّ يوحنا يصرّح بان «رسالة يسوع من السماء» وانّهُ «هو فوق الكل لأنّهُ اتى من السماء» وانّ ما يشهد بهِ من الحقائق والاسرار «قد عاينهُ وسمع بهِ» وانّهُ «يتكلّم بكلام الله» وانّهُ «هو ابن الله» وان «الآب الذي يحبّ ابنهُ جعل في يدهِ كلّ شيءٍ» فالذي «يؤمن بهِ لهُ الحياة الابديّة» وبخلاف ذلك «غضب الله يستقرّ على من لا يؤمن»

فليت شعري أكان يمكن ليوحنا المعمدان ان يؤدي شهادةً افضل من هذه في لاهوت المسيح النازل من السماء العالم باسرار الله المؤتمن لقدرة الله ابن الآب المحبوب منهُ والمانح للحياة الابديّة . وهذه الشهادة نطق بها نبيٌّ واعظم من نبيٍّ بل افضل مواليد النساء الذي أقرّ بعظم شأنهِ اليهود والمسلمون معاً . حتى انّ السيّد المسيح امكنهُ ان يفحم اعداءهُ لمّا سألهم (متى ٢١ : ٢٥) عن معموديّة يوحنا من اين كانت من السماء ام من الناس . حتى اذا قالوا من السماء اردف بقولهِ : فما لكم لا تؤمنون بشهادتهِ عني ? وان قالوا: من الناس خافوا من الشعب لأنّ يوحنا كان يُعدّ نبيّاً عند جميعهم . فشهادة يوحنا لا تزال الى يومنا سيفاً ذا حدّين تؤثم من ينكرها او تقضي على من يسلّم بها ان يؤمن بلاهوت المسيح (لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

Le Livre Noir. L'Anarchie dans la Grande Loge Nationale d'Egypte. *Le Caire*, 1912 (arabe 38 p. français 35 p.)

الكتاب الاسود او الفوضى في المحفل الاكبر الوطنيّ المصريّ

قال الرب (لوقا ١١ : ١٧) : «كلّ مملكة تنقسم على نفسها تَخرَب وكلّ بيت ينقسم على نفسهِ يسقط» وهذه الآية تصدُق اليوم في الماسونيّة التي لا يجمع اعضاءها الاّ معارضة الدين والدسائس للسلطة الشرعيّة وما عدا ذلك فاغراض شخصيّة ومصالح ذاتيّة لا تلبث ان تفرّق الكلمة وتنفّر القلوب . ولنا في الماسونيّة المصريّة خصوصاً عبرة قريبة فانّ اعضاءها منذ سنتين يتهارشون ويتقاتلون حتى اصبحت محافلهم التي يزعمون انها منتديات السلام والاخاء ميادين خصام وبكام تصاعدت جلبتها من

انوار الماسونيّة الى الخارج ومن اراد الوقوف على هذه الشائعات فليراجع الكتاب المعنون بالكتاب الاسود الذي طبعهُ بعض ابناء الارملة احتجاجاً على ادريس بك راغب رئيس الشرق المصري الاعظم وحزبهِ · فليقمْ الماسون بعد ذلك ويشكوا على شيعتهم فمن آثارها قد عرفناها · فها هي ذا قد اثبتت فعلاً صحة كلّ ما كتبناهُ في كراريسنا المعنونة بالسرّ المصون في شيعة الفرمسون

كتاب معالم الكتابة ومغانم الاصابة لعبد الرحيم بن علي بن شيث

عُني بنشرهِ وتعليق حواشيه الخوري قسطنطين الباشا المخلصي

طبع في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١٩١٣ (ص ١٩٢)

هو كتاب نفيس نشلهُ حضرة الخوري قسطنطين من ايدي الضياع فنشرهُ بالطبع · وهو في ثمانية ابواب مدارها على الكتابة وآدابها وشروطها وطرائقها · وهو مع كونهِ اضيق نطاقاً من صبح الاعشى للقلقشندي لا يخلو من فوائد جمّة كالباب الخامس وهو في الالفاظ التي يقوم بعضها مقام بعض على مثال كتاب الالفاظ الكتابيّة لعبد الرحمان الهمذانيّ · والباب السادس في الامثال التي يستشهد بها الكاتب في انشائهِ · والباب الثامن في ما لا بدّ للكاتب النظر فيه والتحرُّز منهُ · وكان الكتاب لقدمهِ واشتباك خطوطهِ صعب القراءة فلم يزل حضرة الخوري قسطنطين يدرسهُ حتى فكَّ اكثر الغازهِ اما مؤلفهُ فلم يقف حضرتهُ على شيءٍ من احوالهِ الَّا انهُ استدلّ على كونهِ من أدباء القرن السادس للهجرة في زمان الملك صلاح الدين · ولعلهُ هو القاضي الفاضل الشهير الذي كان كاتباً لصلاح الدين واسمهُ ايضاً عبد الرحيم بن علي لكنّ هذا مولدهُ في عسقلان وتولّى القضاء على بيسان وكانت وفاتهُ سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠ م) والله اعلم · وكان الاولى ببعض فصول هذا الكتاب ان تُضبط بالشكل الكامل دفعاً للالتباس · وقد افادنا حضرة ناشرهِ بانهُ ضرب صفحاً عن الفصل السابع لسقوط قسم كبير منهُ ولكن كان يجدر بهِ على الاقلّ ان يذكر فحواهُ · وبعض الابواب تحتاج الى شروح اوفى · في الصفحة ١٨ س ٧ الشطر الثاني مكسور ولعلّ صوابهُ « ابداً يَسْرَةٌ وتلك جنيبَهْ » وفي الصفحة ١٠٩ س ١٦ ضُبطت « المَخْأة » بفتح الميم والصواب المِخأة او « الميضاءة »

ل · ش

اللُّمعة في تكذيب الرَّدعة

انشأها السيّد اقليميس يوحنا معارباشي رئيس اساقفة تكريت شرفاً
طُبعت بمطبعة الاتحاد في بيروت سنة ١٩١٣

بينا نرى غبطة السيد عبد المسيح بطريرك السريان اليعاقبة سابقاً والسقفين الجليلين ايلياً وابراهيم مطراني القدس الشريف وحمص قد نبذوا الاضاليل اليعقوبيّة وافرحوا أمَّنا الكنيسة الكاثوليكيّة بدخولهم في الحظيرة البطرسيّة نرى على خلاف ذلك رجلاً اكل سنين طويلة خبز الكاثوليك لجحد اياتهم ورفع عقبهُ على الكنيسة الرومانيّة المحسنة اليه نريد به افريم برصوم الراهب اليعقوبيّ الذي تسمَّى باسم الهفوذياقون نعمة الله دنو فطبع كرَّاسةً في دير الزعفران دعاها بالردعة وادَّعى انَّهُ فنَّد فيها رسالة الرجعة للقس الفاضل اسحاق ارمله التي انتقد فيها على بعض مزاعمهِ. فسرَّنا ان سيادة المطران اقليميس يوحنا معارباشي قام فانتصر لكاهنهِ وضرب بعصاتهِ الراعويّة الشاة الجرباء وزيَّف سفسطاتها فياليتها ترعوي وتعود تائبة الى قطيع الراعي الوحيد لئلَّا تصبح فريسة الذئاب الخاطفة فتندم حيث لا ينفعها الندم

ل.ش

حياة القديس يوحنَّا دي لاسال

للخوري بولس عويس
طبع بمطبعة الفرير السنائية بالاسكندريّة سنة ١٩١٣ (ص ٤٦٣).

لمَّا ادرج قداسة الحبر الاعظم لاون الثالث عشر سنة ١٩٠٠ اسم يوحنا دي لاسال في سجلّ القديسين اسرعنا فنشرنا مقالةً في المشرق (٤:٤٦٥–٤٧١) اختصرنا فيها اعمال ذلك الرجل البارّ الذي انشأ المشروعات العظيمة واخصّها جمعيّة اخوة المدارس المسيحيّة المنتشرة اليوم في كثير من البلاد وخصوصاً في اقطارنا الشرقيّة حيث يخرّج ذووها الشبيبة في العلوم والآداب معاً على افضل منوال. ومن ثمَّ قد سُررنا بنشر حياة القديس مثنىً طريقتهم مطوَّلة مفصَّلة بقلم احد افاضل الكهنة الموارنة المدرّسين في مدارسهم حضرة الخوري بولس عويس المعروف بآثارهِ الكتابيّة فراجع لتأليفها المستندات الوافرة التي استعارها من مكتبة الفرير فاخرجها على صورة شائقة. ولا شكَّ انَّ هذه الترجمة تبعث في قلوب كثير من احداث بلادنا الرغبة في الاقتفاء

بصاحبها . والكتاب مصدر باجازة السيد الفضال اقناطيوس نوري مطران السريان بمصر وكنّا نودّ لو شُفعت برخصة سيادة النائب البطريركيّ على الموارنة هناك كما تقتضي القوانين الكنسيّة ل. ش

بمناسبة التذكار المئوي لميلاد فردريك اوزانام

لاحد الآباء العازريين (نقلًا عن مجلة الجمانيّة. ص ٣٩)

لمّا احتفلت شركة القديس منصور دي بول في الثغر بيوبيلها الحسينيّ سنة ١٩١٠ ذكرنا في المشرق (٣: ٤٨١–٤٩٣) تاريخ هذه الشركة الخيريّة وما عاد بانشائها من الفضل لذاك البطل الهمام والكاثوليكيّ المحض فريدريك اوزانام . والسنة الحاليّة هي السنة المئة لمولد هذا رجل الله فأُقيمت لتذكاره الحفلات في كلّ البلاد التي نالت من فضله على يد شركة مار منصور ولم تتأخّر شركات بلادنا عن ذلك . وقد سرّنا ما افردته مجلة الجمانيّة لذكره وهي مقالة دبّجتها براعة حضرة منشئها الاب يوسف علوان ثم نُشرت على حدة تعميماً للفائدة ومضمونها لباب اعمال فريدريك اوزانام الحقيقة بتخليد ذكره ل. ش

شذرات

انتقاد الاب انستاس الكرمليّ — أطلعنا حضرة نائب بطريرك الكلدان في الثغر على مقالة نشرها في مجلته لغة العرب (ص ٢٧٢) نقداً على رحلتنا من بيروت الى الهند حضرة الاب الكرملي « انستاس » وان شئتَ قل « ساتسنا » (مقلوب انستاس) او قل « البعيث الحضري » او قل « ابو الخير فهر ابن جابر الطائي » او قل « عصام الدين ابو يوسف يعقوب العكاوي » او قل « كاظم الدجيليّ مدير مجلة لغة العرب المسؤول » . لانّ حضرته تستّر تحت كل هذه الاسماء المستعارة ليكتب ما يشاء . فالاسماء عديدة والقلم واحد والله اعلم بما قصد من تنكّره . وما كنّا لنكترث لعمله لولا انّه على حجّة الانتقاد اراد نعيد مرّة التحامل على شخصنا الضعيف . وفي العدد الذي نشير اليه شاهد جليّ على قولنا كما سترى

ففي المقالة التي اوقفونا عليها ادّعى حضرة الاب انستاس انتقاد ما كتبناه من

بغداد والعراق في رحلتنا من بيروت الى الهند فافتتح انتقاده بهذا الكلام اللطيف «في ما كتبهُ الاب لويس شيخو الثّ والسمين الغثّ والتضيض على انّ الاوهام تتغلب على ما فيهِ من حقائق الكلام» (كذا) وختم هذه المقدّمة بقولهِ: «لا جرم انهُ رأى كل هذه المواقع في الكتب التي تبحث عن هذه الديار فاغتنم فرصة سفرهِ في هذه الارجاء ليكتب عنها ما كتب». فالقول صحيح يا حضرة الاب ولم ننكره مطلقاً لا بل يلوح من مطاوي كلامنا في كل صفحة منهُ واي اثم في ذلك؟ ألا يجوز لكاتب اذا كتب بسفر رحلتهِ الى بلد ان يضيف الى ما رأى معلومات استفادها من غيرهِ ولاسيما اذا كانت رحلتهُ تمّت في وقت قصير كرحلتنا التي لم تزد على ثلثة اسابيع من الموصل الى خليج العجم فلم نحطّ الرحال في غير الموصل وبغداد اياماً قليلة كما روينا ولم يكن في يدنا اذ ذاك كتاب نرجع اليه فاين الزور اذا سددنا الخلل بعد ذلك؟ وزد عليه انّ هذه الرحلة نشرناها بعد ١٦ سنة فاستجدّت امور في العراق أفأتينا شططاً بذكرها تتمّةً للفائدة. فانظر رعاك الله انصاف الاب انستاس في تقريعهِ لنا كأننا اتينا بذلك تزويراً وهو اعلم بمن يفعل ذلك!!

ثم عدّد حضرة المنتقد في اربع صفحات اوهامنا الفظيعة واغلاطنا المريعة فنادى بالويل والثبور فتارةً يأخذ علينا قولنا عن زيارة مقام الامام الاعظم «يوم السبت» وصوابهُ «يوم الجمعة» او ذكرنا للسيد «هبة الله الشهرستاني» والاصحّ «هبة الدين» او يقرّعنا بعدم تدقيقنا لوصف «قُفّة» نهر بغداد!!. وتارةً يحاججنا على وهمنا في تعريف رتبة احد الرهبان الكرمليين الذي دعوناه نائباً للرئيس او لاننا لم نصلح تصحيف كلمةٍ وردت في احد النصوص التي نقلناها بحرفها. وحيناً يقرّعنا على كوننا اوردنا احد معاني اسم بغداد اي «هبة الله» فقال الاب انستاس: «كان يحسن بهِ ان يضع تأويلهُ تحت شك» ولو قرأ بقيّة العبارة لرأى اننا لم نقطع برأينا اذ اردفنا ذلك التأويل بقولنا: «وقيل غير ذلك». وطوراً يلومنا على ما اوردناهُ من الاحصاءات عن عدد اهل بغداد بين مسلمين ونصارى وغيرهم كأنّهُ يجهل انّ الاحصاءات في بلادنا غير مضبوطة فيقدّر الواحد ما لا يقدّر الآخر.

واغرب من ذلك ان الاب انستاس استفظع رسمنا لصورة كنيسة حضرة الآباء الكرمليين في بغداد فتهكّم بنا قائلاً انّ تلك الصورة ليست صحيحة. وقد اقرّ مع

ذلك انَّ تلك الصورة نشرتها المجلات الاوربيَّة كصورة كنيستهم فان كنَّا انخدعنا بها فن المخطئ أنحن او الاب الكرملي الذي نشر تلك الصورة وسكت عن ناشرها بعد نشورها سهواً كما يدَّعي. ومن كبائرنا التي اخذها علينا أنَّنا دعونا مدرسة «الاتحاد الكاثوليكي» بمدرسة «الترقي الكاثوليكي» وقس على هذه الانتقادات التافهة ما اشبهها كبعض اعلام قديمة كتبناها على خلاف ما يرضى به الاب انستاس وكلٌّ يعرف انَّ الاعلام البابليَّة تُروى على صور شتى. وقد ختم هذا الفصل الانتقادي بالاسطر التالية التي نرويها بحرفها ليرى القرَّاء حسن ذوق كاتبها وعدله في النقد قال:

هذا مجمل ما رأيناهُ من الاوهام في رحلة الاب لويس شيخو اليسوعي الى بغداد فقط . فما القول في الرحلة كلها ! بل وما القول في ما يكتب عن تواريخ الاجيال المنقرضة والقرون الخالية ؟ وما عسى ان تكون منزلة ما يكتبهُ مثلاً عن قبائل العرب وما يتعلَّق بباديتهم ؟ فلا جرم أنَّ الاغلاط تُكال حينئذٍ كيلاً ولا تُنقال قولاً (كذا). وبهذا القدر كفاية لمن يريد ان يقف على مكانة مؤلفات حضرة الاب ونحن لم نتعرَّض لما في عباراتهِ من الاغلاط الجمَّة التي تزيد كلامهُ غموضاً وخفاءً لانَّ ذلك يجرُّنا الى تطويل اذيال المقال الى ما لا يسعنا فيهِ المجال فاكتفينا بالاشارة اذ انَّ اللبيب من الاشارة يفهم »

هذا ما سطَّرتهُ يد راهبٍ قنا في بيروت بخدمتهِ مدَّة نحو شهرين كامزَّ الاخوان فكتب ما يأنف منهُ ادنى الكتاب ادباً. فسوَّد بضربة قلم كل ما وفَّقنا الله الى كتابتهِ منذ ٣٥ سنة ولو اردنا تفنيدهُ لكفانا شهادات حضرة الاب انستاس عينهِ نتزعها من نحو مئة رسالة كتبها الينا سابقاً واثنى فيها على تآليفنا فحقَّق قول الشاعر:

فعين الرضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

وان سألت أيها القارئ عن سبب قلبهِ لنا ظهر مجنّهِ أجبنا انَّ هناك سرًّا دنيّاً نكتمهُ صوناً لشرف الاب ولكرامة رهبانيَّتهِ الجليلة ونحن نعلم انَّ رؤساءه لو اطَّلعوا على ما يكتبهُ مرؤسهم لما اضربوا عنهُ صفحاً « واللبيب من الاشارة يفهم »

ولو اردنا ان ننتقد على كتابات مجلة لغة العرب لا زوراً وتحاملاً بل انتقاداً عادلاً لما نقصت المادَّة . راجع مثلاً مقالة الطباعة (ص ٢٢٣—٢٣١) المنسوبة الى « ابرهيم حلمي » ولعلهُ احد الاسماء التي استعارها الاب انستاس متنكراً كعادتهِ وقد قال هناك انهُ استند الى مقالتنا التي نشرناها في المشرق (في السنين الثالثة والرابعة والخامسة) فدونك ما كتبهُ عن مطابع سوريَّة قال ما حرفهُ (ص ٢٣٠):

اما المطابع في البلاد العربيّة فدخلت اوّلاً لبنان على يد الراهب الماروني عبدالله شاهر سنة ١١٤١ وكان لها مطبوعات جمّة ليس هنا محلّ لذكرها ودخلت الطباعة حلب في القرن الثامن عشر واوّل مطبعة ظهرت فيها على ما نعلم المطبعة المارونيّة سنة ١٨٥٧ ومنشئها المطران مطر وهي باقية حتى الآنَ . . . . . واوّل مطبعة ظهرت في الشام المطبعة الحنفيّة الخ

فكيف زعم انهُ استند الى المشرق وفي هذه الاسطر القليلة من الاغلاط ما فيها : ١ً اوّل مطبعة دخلت لبنان كانت في قزحيّا سنة ١٦١٠ (راجع المشرق ٣:٢٥٣-٢٥٦) . ٢ً ولم تدخل على يد راهب بل على يد ايلي بسكالي الايطالي (المشرق ٣:٢٥٤) . ٣ً وولِيتها مطبعة حلب قبل مطبعة الشوير . ٤ً اوّل مطبعة ظهرت في حلب ليست المطبعة المارونيّة سنة ١٨٥٧ كما قال مناقضاً لقوله ان الطباعة دخلت حلب في القرن الثامن عشر بل هي المطبعة التي أتى بها البطريرك الرومي الملكيّ اثناسيوس نحو السنة ١٧٠٤ وعدَّدنا في المشرق (٣:٣٥٦) مطبوعاتها . ٥ً المطبعة الشويريّة التي ذكرها في لبنان لم تدخل «على يد الراهب اللبناني الماروني عبدالله شاهر سنة ١١٤١» بل على يد الشمّاس الرومي الملكي الكاثوليكي عبدالله زاخر سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٠) (المشرق ٣: ٣٥٩) . ٦ً اوّل مطابع الشام ليست المطبعة الحنفيّة بل مطبعة حنا الدوماني سنة ١٨٥٥ فبقيت في ايدي النصارى نحو ٣٠ سنة قبل ان يبتاعها محمّد الحنفي فدعيت باسمهِ سنة ١٨٨٣ (راجع المشرق ٤: ٨٧٨) فهكذا نسخ الكاتب بل مسخ مقالتنا في المشرق سامحهُ الله !

موشّح قلب يسوع ✻ نشرنا هذا الموشّح في العدد السابق (ص ٤١٧) مرويًّا للسيّد جرمانوس فرحات . ثمَّ اطّلعنا على نسختين اخريين لم يذكر فيها اسم المؤلف . وقد افادنا حضرة القس جرجس ملش انَّ هذا الموشّح او النشيد هو في الحقيقة للخوري نقولا الصائغ الرومي الملكيّ صاحب الديوان الشهير وانهُ قالهُ سنة ١٧٥٠ في مناسبة ابراز هنديَّة عجيمي نذرها الاحتفالي . وأيَّد ذلك بفقرة من تاريخ رهبان مار يوحنا الصابغ في الشوير صرَّح فيها الكاتب بانَّ الموارنة دعوا في ذلك اليوم بقيَّة الطوائف لحضور تلك الحفلة وانَّ الخوري نقولا نظم اذ ذاك نشيدهُ . فنشكر الكاتب على ما افاد

التوأم ✻ قد طنطنت الجرائد في هذا العهد الاخير بذكر داء عضال يُصاب بهِ اهل اواسط افريقية وزعموا انَّ هذا الداء لم يُعرف سابقاً . على

انّ ابن خلدون المتوفّى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) قد ذكرهُ في تاريخهِ في اواخر القرن الرابع عشر وعرّفهُ بكل تدقيق. قال يروي موت جاطة سلطان مالي جنوبي تمبوكتو في تاريخ سنة ٧٧٥ هـ (١٣٧٣ م) ما حرفهُ (طبعة مصر ٦ : ٢٠٢):

قال واصابتهُ علّة النوم وهو مرضٌ كثيرًا ما يطرق اهل ذلك الاقليم وخصوصًا الرؤساء منهم. يعتادهُ غشيُ النوم عامّة ازمانهِ حتى يكاد ان لا يفيق ولا يستيقظ الّا في القليل من اوقاتهِ ويضرّ صاحبهُ ويتّصل سقمهُ الى ان يهلك. (قال) ودامت هذه العلّة بخلّلهِ (تخلّلهُ) مدّة عامين اثنين وهلك سنة ٧٧٥ (٧) (راجع مجلّة الاسلام C. H. Becker: *Der Islam*, I, 197-8)

اسئلة واجوبة

س سأل من حلب حضرة القس بولس سباط السرياني: ١ من هو الربّان دانيال الكلّي بابن الخطّاب. ٢ والربّان داود بن بولس. ٣ وهل يعرف تفاسير في الاشجار والنبات في السريانيّة دانيال بن الخطّاب — وداود بن بولس — سِيَر في الاشجار والنبات

نجيب على (الاوّل) انّ دانيال هذا كان راهبًا يعقوبيًا وكاتبًا عاش في النصف الثاني من القرن الرابع عشر كتب في السريانيّة والعربيّة وهو صاحب كتاب الاصول الدينيّة والقواعد البيعيّة المقدّسة الموجود في خزانة كتب ليدن وقد سمّاهُ السمعاني في المكتبة الشرقيّة (٢ : ٤٤٢) اصول الدين وشفاء قلوب المؤمنين وذكر لهُ شعرًا سريانيًا. نجيب على (الثاني) انّ داود بن بولس كان ايضًا كاتبًا يعقوبيًا من بيت ربّان كان راهبًا ثمّ سُقّف في القرن الثالث عشر ذكرهُ ابن العبري في كتاب خزانة الاسرار. صنّف كتبًا جدليّة وادبيّة وميامر شتى نثرًا وشعرًا. ونجيب على (الثالث) انّنا لم نجد بين المصنّفات المعروفة لداود المذكور ميمرًا على النبات والشجر. ولعلّهُ قسم من الكتاب المنسوب اليهِ عن وصف الاقاليم

س وسأل من صيدا جناب توما افندي كيال أيوجد في مكاتب اوربة او غيرها كتاب للسيّد الشريف الرضي معنون بحقائق التنزيل ودقائق التأويل

ج لا ذكر لهذا الكتاب في ما لدينا من قوائم الكتب بل لم يصفهُ الحاج خليفة في كتابهِ كشف الظنون

س وسأل جناب الكتبي يوسف افندي صفير ايّ سبب تدعى انكلترة بريطانية العظمى

ج ذلك لتمييزها عن مقاطعة بريطانية الفرنسويّة المدعوة قديمًا ببريطانية الصغرى لما استعمرها بعض اهل جزيرة بريطانية العظمى المواجهة لها ل. ش